علي الداودي
هلوسة
ومضات
من
الذاكرة

هلوسة

اسم الكتاب: هلوسة: ومضات من الذاكرة

اسم الكاتب: علي الداودي

نوع العمل: رواية

الرقم الدولي EBIN: 16-1-399-250820

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2025م / 1447هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

داربسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

Darbassma1@gmail.com

المملكة المغربية

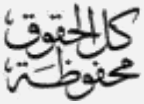

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأي صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلى أي نحو كَانَ، أو بأي طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

هلوسة

ومضات من الذاكرة

رواية

علي الداودي

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى كل طفل يحمل قلما كسيف خشبي...

إلى والدي اللّذين رأيا في خربشاتي أولى خطواتي...

إلى إخوتي الّذين تحملوا هلوساتي...

إلى زوجتي الّتي حولت حياتي إلى مداد...

إلى مهدي (رفيق الكلمة والصمت)، سعيد (توأم الإبداع)، حليمة (حارسة الأحلام) ...

إلى معلّمي، الشموع الّتي علّمتني أنّ السؤال أهم من الجواب...

إلى كل قارئ رأى انعكاس نفسه أو جزء منها في هذا العمل...

تمهيد

لازمتني الكتابة منذ مرحلة الإعدادي، وفقدت العديد من كتاباتي إلّا مذكّرة يتيمة كانت لا تفارقني.

وقد اطّلع على محتوياتها بعض الأصدقاء، فطلبوا مني ألّا أكون أنانيا، واقترحوا علي أن أنشر ما كتبته.

نفّذت طلبهم، ونشرت بعض كتاباتي على صفحات فيسبوك، وبعض المنتديات الأدبية.

وبسبب تجاوب الناس مع ما قرؤوه، وإلحاح أصدقائي المستمر، قررت إخراج هذا المولود إلى الوجود.

فهذا الكتاب عبارة عن ومضات من الذاكرة، ليس سيرة ذاتية بالمفهوم الأدبي المتعارف عليه، كما أنّ أحداثه واقعية، أستحضرها حسب ما تسمح به ذاكرتي، مع التركيز على المدرسة، وعدم التطرق لما ليس له علاقة بها من حياتي الخاصة، باستثناء ما يجعل القارئ يفهم بعض الأحداث، كما ارتأيت تغيير الأسماء حفاظا على الخصوصية، واحتراما لذكرى أشخاص جمعتني بهم أقسام المدرسة.

كل من جرب الكتابة، يعلم أنّه حين تأتي الفكرة، يكون هاجسه تدوينها قبل أن تتلاشى، فهي تأتي محمولة في قالبها اللغوي، لذلك لا يدقّق أو ينقّح في حينه، لأنّه يسابق الزمن لالتقاطها وتدوينها، فلديه لحظات قليلة لإخراجها للوجود، لأنّها تتلاشى، مثل منظر الغروب، إن لم تلتقط الصورة في اللحظة المناسبة فإنّك تفوته، وعليك انتظار الغروب المقبل، رغم أنه لن يشبه الذي سبقه، والفرق هنا هو أنّك لا تعرف متى تزورك الفكرة مرة أخرى.

قبل التعدرس

أوّل حبّ

حـ ب من النظرة الأولى ذلك الّذي ربطني بالورقة والقلم. كنت أحسد أخوي حين ينشران لوازمهما المدرسية على الحصير، ويشرعان في إنجاز واجباتهما المدرسية. أتوقّف عن اللعب، وأرقبهما من بعيد، ثمّ أتسلّل لأقترب منهما، فأسرق قلما وأي شيء آخر: دفترا أو كراسة أو كتابا... فأشرع في العمل: أخربش خطوطا ملتوية أو متموجة، أملأ بها الصفحات. لم تسلم إلّا الرسوم أو الصور، أفعل هذا معتقدا أنّني أكتب.

لذيذ ذلك الإحساس أنّني مبدع ومنتج ومفيد!

لم أكن أفهم لماذا يبدأ أي منهما بالبكاء بحرقة عندما ينتبه إلى؟ ما الّذي فعلته؟ أنا أساعدكما فقط! أريدكما أن تنهيا بسرعة كي نلعب معا!

كثرت شكاياتهما، وتعرضا للعقاب في المدرسة مرارا بسببي، وأتساءل لماذا لم يخبراني حينها؟

استدعاء أبي إلى المدرسة، وتدخّله في الموضوع، جعلني أتوقّف عن مدّ يد العون لهما مؤقّتا.

عكس أيامنا هذه، كان جميع أفراد الأسرة ملزمون بالاستيقاظ باكرا، نجتمع حول مائدة الإفطار، وبعد تناول الوجبة نفترق، يبدأ كل واحد منّا مهامه.

كانت مهمتي اللعب مع أختي الصغرى، وإزعاج والدتي، وبذكائها كانت تجعلني أساعدها.

اليوم مختلف: ألبستني ملابس الخروج، ممّا يعني أنّني سأغادر، سأتركها وأختي في البيت، لقد صرت كبيرا.

رافقت والدي، بالكاد استطعت مجاراته في مشيه، كيف يفعل الكبار ذلك؟ خطوة واحدة ويبتعدون كثيرا، في حين علي أن أركض كي ألحق بهم. ظل أبي صامتا، وكنت مشغولا بشكل الرصيف، أحاول تجنّب الدوس على الخطوط.

وصلنا إلى المدرسة، عرفت ذلك لوحدي، لم أسأله، فقد رأيت عددا كبيرا من الأطفال، يحملون المحافظ، ويدخلون من الباب الكبير، وبعضهم لا زال في الخارج، تجمعواْ حول رجل أمامه عربة، يناولونه شيئا، فيعطيهم في المقابل شيئا ملفوفا في ورقة، لابدّ أنهم يشترون الحلويات.

سحبني والدي نحو اليمين حين دخلنا، أمامنا بناء متوسط، إنّها إدارة المدرسة، وفي مكتب المدير، جلس أبي على الكرسي، ووقفت بين فخذيه أنظر إلى الرجل الأنيق في بذلته الرمادية المخطّطة.

كانت ملامحه جادّة وجافّة، يبدو عليه الحزم، فهمت من كلامهما أنّ أبي سيسجّلني في المدرسة، ولولا خوفي منهما لبدأت القفز والصياح فرحا.

أخرج والدي دفتر الحالة المدنية، وقدّمه للمدير، ففتحه وبدأ يقلّب أوراقه، ثمّ توقّف وسأل والدي عن اسمي.. لماذا لم يسألني؟ هؤلاء الكبار لا يثقون فينا.

عليّ، كرّرها، فتفحّصني وتفحّص الدفتر بين يديه، نقل بصره بيننا ثلاث مرات، كأنّه يقارن، وربّما يشكّ في شيء. ثمّ نظر إلى والدي وقال:

- الموسم المقبل إن شاء الله.

كانت كلماته صدمة بالنسبة لي، قالها وتوجّه نحو الباب، وهو يغلق دفتر الحالة المدنية، ويمدّه لوالدي، كان جوابه بمثابة أمر لنا بأن نغادر. خرجنا من المدرسة، سرنا باتجاه البيت، وعندما اقتربنا من الزقاق المؤدّي إليه، انعطف والدي يسارا وهو يسحبني.

وصلنا إلى مكان لا هو بدكّان، ولا ورشة عمل: يبدو كمرأب قديم، بابه نصف موصد، أزاح أبي الإزار الّذي يحجب الرؤية بيده، ودخل يجرني خلفه.

نعال على الأرض، أمام حصير يغطّي نصف الأرضية الإسمنتية، ثلاثة أطفال يجلسون حاملين ألواحا خشبية، نظروا إلي مبتسمين، لم يفرحوا بقدومي، بل لانضمام سجين جديد إلى الزنزانة.

في الركن الأيسر وسادة يجلس عليها السي لحسن، الفقيه قريب والدي، قام يستقبلنا مبتسما، عانق والدي، بينما مدّ يده إلي كي أقبلها، ففعلت.

أمسكني من يدي، وسمعت والدي ينبهه ويحذّره مني قبل أن يغادر. ما إن خرج، حتى تحولت ابتسامة الفقيه إلى تجهم، وبنبرة صارمة أمرني أن أحمل لوحا محدّدا من الألواح الموجودة خلف الباب.

إنّه لوحي الّذي كنت أستعمله لحفظ القرآن، عندما كنت طالبا عند السي محمد. لقد خطّط أبي لكل شيء، في غفلة مني.

وقفت قرب الباب، غسلت اللوح بالماء، ثمّ مررت عليه قطعة صلصال، ووضعته في أشعة الشمس كي يجفّ.

بدأ اللون الأبيض يغطّيه، جلست قربه أنتظر، فيما كان الفقيه يرقبني بتوجس.

ظل يسألني كل لحظة إن جف اللوح، وأجيبه بالنفي، وعندما سئمت اللعبة رفعته لأسمح له برؤيته، فطلب مني ألّا أتهور وأفكّر في الهرب، كما فعلت في المرة السابقة، لأنّ العقوبة هذه المرة ستكون أقسى وأشدّ.

وضعت اللوح بين يديه، فأخرج من جيبه قطعة قصب، طولها شبر تقريبا، وبعرض أصبع، رأسها مدبب، مررها على الوح فظهرت خطوط أفقية رقيقة.

أخرج من تحت الوسادة قنّينة زجاجية صغيرة، في قاعها قطن أو صوف، غارق في سائل لزج كريه الرائحة، لونه بني.

أدخل الرأس المدبب في القنّينة، ثم كتب: بسم الله الرحمن الرحيم. أما ما تبعها فلم أعرف منه شيئا، أنهى عمله، وأمرني أن أحمل لوحي، وأشارك زملائي ترديد سورة الفاتحة.

جلست على الحصير أندب حظّي: خيبتان في يوم واحد، مدرسة ترفضني، وكتاب قرآني يسجنني.

هـل أنا محظـوظ؟ ظـل هـذا السـؤال يـراودني منـذ بدايـة تشـكّل وعيي. استمرت الدراسة في هذا السجن ستّة أيام، جاء اليوم السابع، كنّا نحمل ألواحنا، ونصدح بآيات كتاب الله رغم قلّة عددنا، لقد كان دورنا أن نعلن عن وجود كتّاب قرآني في الحي، وصلة إشهارية مجّانية.

بينما نحن كذلك، جاء رجل يبدو أنّه صديق الفقيه، تحدّثا على انفراد لوهلة، ثمّ انصرف.

بدا الارتباك واضحا على وجه السي لحسن، أمرنا بالصمت. فكّر قليلا، ثمّ طلب من زملائي الانصراف، لم يصدّقوا أنفسهم، تبادلوا النظرات مستغربين، ثمّ غادروا وهم يصيحون.

أمسكني من يدي، لم يكن يثق بي، أغلق محلّه، ثمّ أخذني إلى البيت، وهناك سلّمني لوالدتي، ووعدها أن يعود لتناول وجبة الغذاء.

تناولنا غذاءنا، وفهمت من كلامه أنّني تحررت، بل تحررنا معا، فقد حصل على عمل مع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، وسيغلق الكتّاب القرآني، ولن أرى لوحي الّذي بقي معه.

حلّ

بعد مدّة عدت لعادتي القديمة، ولم يسلم أي شيء من خربشاتي، الدفاتر والكتب والجدران، حتى كرسي السيارة الأبيض الّذي جلبه والدي زينته ببصمتي، لطّخت كل شيء.

كان من الصعب منعي من ذلك، فقد كنت عنيدا، إن لم أقتنع بشيء فلن أفعله، وإن أردتني أن أقوم بشيء فامنعه عني.

حلّت العطلة الصيفية الّتي كنت أنتظر انقضاءها على أحر من الجمر، كنت أتشوق للالتحاق بالمدرسة، في حين يتمنى أخوي ألّا تنتهي.

مر أسبوعها الأول عاديا مملّا، وفي الأسبوع الثاني أحضر والدي سبورة وكرسيا طويلا وعصا رقيقة طويلة، لقد كلّف نجّار الحي بصنعها منذ مدّة، منذ أن اشتكى الجميع من تصرفاتي، لكن انشغال النجار بطلبيات أخرى منحني عطلة.

تمّ تكليف أختي الكبرى بتدريسي، وكم يحب الأطفال لعب دور المعلّم! وساعدها تفوقها في وضع برنامج لتعليمي.

بدأت بحروف الهجاء، فالأعداد، ثمّ القرآن الكريم. وبدأت أكتشف قدرتي على الحفظ مبكّرا، حيث يكفي أن أسمع أي شيء

أربع إلى خمس مرات ليلتصق بذاكرتي ولا يغادرها، واكتشفت مهارتي في الحساب، وكانت تعجبني عمليات الحساب الذهني.

في البداية كانت أختي ترغب في الانتقام مني، تتحين الفرص، تحاصرني بالأسئلة كي أخطئ، ورغم عقابها المتكرر، لم أكن أسمح للدموع بمغادرة مقلتي، كنت مقتنعا أنّني أستحق العقاب، لأنّ الأغبياء فقط يخطئون، كما كنت أكره أن أرى لذّة الانتصار على وجهها.

اجتهدت، ولم يمض أسبوعان من التدريس المكثّف حتى صرت قادرا على كتابة اسمي، وقراءة الكلمات بلغة عربية فصيحة، وبعد شهر أصبحت أعرف الأعداد وأسرارها، أجمع وأطرح، كما أحفظ الحزب الستين من المصحف الشريف.

قبلت التحدّي وتعلّمت ما احتاج أقراني نصف عام لتعلّمه في ظرف شهرين فقط، والفضل كل الفضل لأبي وأختي، الّتي تحولت من معلمة قاسية تتصيد الأخطاء، إلى أم ثانية تشجع وتحفّز.

أما أخي فلم أكن أعرف أين يختفي كل يوم، ولا أراه إلّا أثناء تحلّقنا حول مائدة الطعام، لكنّني اكتشفت أنّه لم يكن يختفي، فأنا من كنت أصل درجة من التركيز تجعلني لا أحس بما حولي، وقد تأكّدت

من ذلك حين تعيدني إلى الغرفة ضحكات أختي الصغرى وصيحاتها عندما كان يداعبها قربنا.

صرت مستعدّا للمدرسة، ولهفتي لبداية الموسم الدراسي تكبر يوما بعد يوم، وثقتي بنفسي وبقدراتي تزداد مع كل درس.

قبل انتهاء العطلة حضر ابن عمتي العربي، جاء إلى المدينة بحثا عن عمل يمكّنه من بناء مستقبله، سيكون تحدّيا آخر أفوز به.

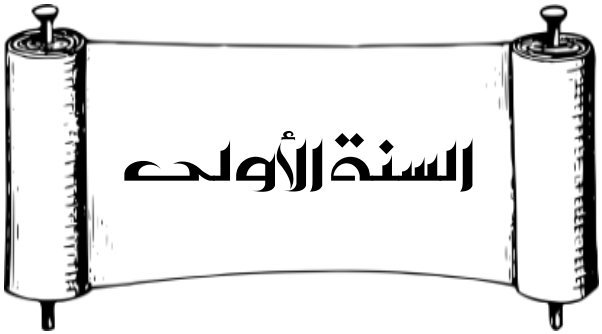
السنة الأولى

مدرستي

ا لسادس عشر من شتنبر سنة ألف وتسعمائة وواحد وثمّانين، يوم الأربعاء، استيقظت قبل الجميع، وانتظرت أن تدخل علينا والدتي الغرفة لتوقظنا.

كنت أنظر إلى السقف وأتخيل نفسي في المدرسة. فُتح الباب، وقبل أن أسمع اسمي، قمت من فراشي، قبلت يدها واتّجهت إلى الحمام، وتركتها تتكفّل بأخوي.

تناولت وجبة الفطور بسرعة، كنت أحس بالشبع، عدت إلى الغرفة، غيرت ملابسي، وحملت ورقة مطوية مزقتها من دفتر أختي القديم وقلما أزرق، هذا ما سأحتاجه اليوم.

كنت أسير جيئة وذهابا بين باب البيت وغرفة الجلوس الّتي لا زالوا كلّهم مجتمعين فيها.

الساعة! كم الساعة؟ إطار حديدي لامع، بداخله قرص أبيض كُتبت على حافته الأعداد ناقصة، لم يكملوا العدّ إلى مائة! واكتفوا بالعدد اثني عشر، وسط القرص مزرعة بيتها أخضر، وفي الخارج دجاجة كبيرة على اليمين، رأسها متحرك، وكتكوتان على اليسار، في المركز ثُبت ثلاثة قضبان، اثنان أسودان يخترقهما خطّ أخضر، الأول

طويل بالكاد يتحرك، والثاني قصير لا يأبى التزحزح من مكانه، أما النحيف الأحمر فلا يتوقّف، وكأنّه يسابق رأس الدجاجة الّذي ينقر الأرض ولا يلتقط الحبوب، نظرت إلى هذه الآلة الّتي تخيف الكبار، وحاولت أن أبدو عالما بخباياها.

أعلن المذياع أنّها السابعة والربع، وقفت أختي فذكّرتني أنّ علي تقبيل رأسي والدي ويديهما قبل الخروج، حين رأيتها تفعل ذلك، فقلّدتها، أما أخي فنهض بتباطؤ ليلحق بنا، سرنا جميعا باتجاه المدرسة، أسبقهما ثمّ أعود وأسير بجانبهما.

الشارع طويل يملؤه الأطفال، بعضهم برفقة آبائهم أو أمهاتهم. والغالبية مثلنا، يسيرون وحدهم، اقتربنا من المدارس، أمامنا مدرسة مولاي يعقوب المنصور، وعلى الرصيف المقابل مدرسة الساقية الحمراء.

أكملنا طريقنا بمحاذاة سور مدرسة مولاي يعقوب، أزقّة هذا الحي متعرجة، تتجه تارة يسارا، ثمّ تنعطف يمينا، كأنّنا في متاهة.

وصلنا إلى ساحة كبيرة، تطل عليها محلّات تجارية كثيرة، أعرف الطريق إلى مدرستي الآن، لم أنتظر أخواي، ركضت ثمّ انعطفت يمينا فوجدتها، أصغر مدرسة في الحي: مدرسة مولاي رشيد.

دخلت من الباب الكبير، وبدأت أكتشف المكان. عن يميني توجد الإدارة الّتي تضم مكتب المدير، وقاعة الأرشيف، ومساحة فارغة على اليسار فيها كرسي ومكتب تناثرت على سطحه ملفّات وأوراق.

تلتصق بالإدارة حجرتان دراسيتان، وقربهما غرفة ضيقة تشبه الكوخ، تكدّس بداخلها المعلّمون يتحدّثون ويضحكون، وبعضهم وقف خارج الغرفة ممسكا أوراقه تحت إبطه، ويراقب الصغار.

أغلب الرجال يرتدون بذلات أنيقة مع ربطات العنق، أما أغلب النساء فكن يرتدين الجلابيب المغربية الباهظة الثمن.

كانت أجسادهم تمنعني من رؤية غرفة أخرى أصغر حجما، فيها طاولة عليها أدوات إعداد الشاي، جلس بالقرب منها شخص يصب الشاي للمعلّمات والمعلّمين، وهناك رصيف إسمنتي من السور أمام الإدارة إلى الجدار الصغير قرب غرفة العون، يفصل البنايات عن أتربة الساحة.

أمام الباب الرئيسي اصطفّت أربع حجرات دراسية، تفصلها مسافة صغيرة عن غرفة العون، وأمامها أيضا رصيف إسمنتي يفصلها عن الساحة، يقابل آخر حجرة على اليسار دورات المياه، وهي

ملاصقة لمسكن المدير المبني على الطراز الأوروبي، بنوافذه الطويلة، وبابه الزجاجي.

زجاج الباب والنوافذ مصبوغ باللون الأبيض، للحفاظ على خصوصية ساكنيه، وقرب الممر الإسمنتي الّذي يفصله عن الساحة غُرست شجيرات يحتمي الأطفال بظلّها من حرارة الشمس.

قفزت مرتعبا من صوت الجرس، كان رنينه حادّا وقويا مقارنة بجرس المنبه في بيتنا، اصطففنا في الساحة الجرداء، حسب المستوى الدراسي، ظهورنا للباب الرئيسي، ووقف أمامنا معلّمونا.

طُلب من تلاميذ المتوسط الأول والثاني مغادرة المدرسة والعودة في تمام الساعة العاشرة.

أما نحن الصغار؛ تلاميذ التحضيري والثاني؛ فقد قسمونا إلى فوجين، فوج سيبقى وسيرافق تلاميذ الثالث، وفوج ثان سيغادر الآن ويعود مع تلاميذ المتوسط.

أمرنا أحد المعلّمين أن ننصت جيدا لأنّه سينادي أسماء الّذين سيبقون.. كم أتمنى أن أبقى، فأخوي يدرسان بالمستوى الثالث، وقد رأيتهما يدخلان حجرة الدرس.

لم أسمع اسمي! فانتابتني الحيرة، ماذا سأفعل؟ هل أعود وحدي إلى البيت؟ إنّه بعيد جدًا. أخبرت معلّمة كانت بقربي، فسألتني عن اسمي، بحثتْ في أوراقها، ثمّ نظرت إلي بوجه جامد، وأكّدت لي أنّني سأفارق أخوي.

مرة أخرى، يحضرني سؤال الحظّ، عدت أدراجي إلى البيت أجر أذيال الخيبة، أشعر أنّني منبوذ رغم أنّ الشارع يعج بالناس، أحسست بهم ينظرون إلي وكأنّهم يتهامسون ويضحكون من براءتي وثقتي الزائدة في الكبار.

سؤال واحد ظل يتردّد في ذهني: كيف سأقضي الساعات الطوال في البيت لا أجد من يلعب معي؟

أختي لا زالت صغيرة، وبالكاد أكملتْ أحد عشر شهرا من مشوارها في هذه الحياة، كما أنّ والدتي تخاف أن أؤذيها، فلا تسمح لي باللعب معها.

صناعة القطيع

ا ليوم الثالث في المدرسة، لا زلت لا أصدّق نفسي!! ذلك الحلم الّذي ظل يراودني، ها هو ذا يتحقّق...

شرحت المعلّمة الدرس، إنّها نفس المعلّمة الّتي أكّدت لي خبر انفصالي عن أخوي، يبدو أنّ القدر جمعنا.

شاركنا بحذر وتوجّس، كانت إجاباتنا متنوعة، نبرات أصواتنا تختلف، وبين الفينة والأخرى يتعالى بكاء أحدنا مقابل جوابه الخاطئ.

لم أكن أخاف منها، كنت أحترمها، إجاباتي صحيحة، وأنا متأكّد من ذلك. فعلم الحساب لعبتي، هوايتي المفضّلة، بل عشقي.

لكنّها لم ترض أن أكون كذلك، كانت تريديني فردا من القطيع، كانت تحب أن تجعل جسمي النحيل يرتعد بنظرة منها، وتعشق أن تجعل جبيني ينضح عرقا، وأن تتمزّق كلماتي حرفا حرفا وهي تغادر حلقي... لم أهزم، عاندت مقتنعا أنّني على صواب.

وزّعت علينا الكراسات، طلبت منّا فتحها على الصفحة السابعة، وكتابة تاريخ اليوم مختصرا 18\09\1981، ثمّ انتظار تعليماتها، ففعلنا.

بعد ذلك، بينت لنا الفرق بين الخطّ المفتوح والخطّ المغلق، وأنهت شرحها بسؤال:

- هل فهمتم؟

أجبناها بصوت واحد:

- نعم. خرجت من أفواهنا مثل نشيد، ونطقناها "ناعَم"، فاستطردت:
- أنجزوا التمارين! إنّها لحظة الحقيقة، والويل الويل لمن يرتكب خطأ!

شرعنا في الإنجاز، بينما بدأت جولتها حاملة عصا غليظة كانت جزءا من مقبض مكنسة قديمة، تمسكها خلف ظهرها.

أنهيت واجبي بسرعة، فقد كانت الأسئلة سهلة، وأجوبتها بديهية، ثمّ بدأت أتلصّص على الآخرين.

كنت في الصفّ الثاني، أجلس في الطاولة الثالثة، ومعلّمتي بدأت بالصفّ الأول أمام مكتبها، وكان طبيعيا أن يجلس أبناء الأغنياء والشخصيات النافذة في الطاولات الأولى والثانية من كل صفّ.

شرحتْ لهم مبتسمة، كانت ابتسامتها جميلة، ونبهتهم إلى أخطائهم، كان صوتها عذبا رقيقا، ورغم ذلك تلعثم بعض الأطفال، أو اكتفوا بالتحديق في وجهها، فيما تباكى آخرون في محاولة منهم لجعلها تنوب عنهم في كتابة الأجوبة.

أنهيت عملي، وأغلقت كراستي. دفعني فضولي إلى قراءة العبارات الّتي تزين جدران القاعة، وكنت ألتفت يمينا ويسارا، أتحدّى نفسي باحثا عن جملة تصعب قراءتها أو فهمها، قرأتها كلّها.

فبدأت أتأمل الصور، هذا قنّاص، وذاك خياط، وذلك نجّار... فإذا بخيالي يحملني بعيدا، وسافر بي إلى داخل إحداها، واقفا خلف السيدة البدينة أنتظر دوري عند الجزار...

فجأة، سمعت داخل أذني طنينا عاليا! أعادني إلى مكاني على المقعد، رافقه ألم شديد في رأسي، ودمعتان دافئتان تتسابقان على خدّي، وصوت المعلّمة تصرخ بي:

- افتح كراستك أيها الغبي!!!

غبي! أردت أن أصيح، لكن غصة كتمت صوتي، فكّرت أن أنتفض وأرمي كل شيء، وأخرج راكضا إلى البيت، لكن الضربة

ثبتتني في مكاني، وكأنّني مسمار صغير انغرس في قطعة خشبية بفعل قوة الضربة.

فتحتَ كراستي، جالت بعينيها تبحث عن خطإ، أو عن مكان فارغ لم أملأه. وكنت أفتّش في وجهها عن جواب ظل يؤرقني ولا زال:

- لماذا ضربتني يا معلّمتي؟

لم أجده، ولم تجد هي أيضا ما كانت تبحث عنه، فابتعدت دون اعتذار، ابتعدت دون تشجيع. وقد آلمني ذلك أكثر من عدم اعتذارها.

قلت في نفسي: ستعتذر لك فيما بعد، كبرياؤها يمنعها من الاعتذار أمام الصغار، وستشجعك حتما عندما تدعوك إلى السبورة أثناء التصحيح.

فعلا قمت إلى السبورة، وأنجزت تمرينا أمام زملائي، وكان جوابي صحيحا، لكنّها لم تكلّف نفسها عناء شكري.

ما شجعتني، وما اعتذرت، وأنا انضممت إلى القطيع، وصرت أهاب معلّمتي، وكنت غبيا حين لم أفعل.

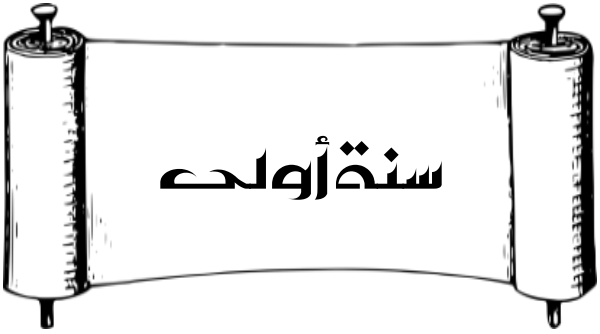
سنة أولى

في سنتي الأولى بالمدرسة تعلّمت أشياء كثيرة، وما ميّزها أنّني تتلمذت على يد أربعة معلّمين: ثلاث معلمات وفقيه.

البداية كانت مع معلّمة سادية، همّها أن نخاف منها، بالخوف ننضبط، وبه نتعلّم ونتذكّر ما تعلّمناه.

كنت نحيفا وقصيرا، وهذا جعل مني ضحية سهلة للتنمر، فكان الأطفال يعترضون سبيلي، ويسرقون ما بحوزتي، وكنت أعود إلى البيت أدواتي ناقصة، وملابسي متسخة، وعلامات الضرب بادية على وجهي. ممّا أثار غضب والدي.

في اليوم الرابع من بداية الموسم الدراسي، بعد أن تناولت وجبة الغذاء مع والدي، حملت محفظتي، وخرجت قاصدا المدرسة، وخوفا من أن أتأخّر سلكت الطريق القصير، سرت في الزقاق الضيق، وعندما اقتربت من دار الشّباب القدس، اعترض سبيلي أربعة أطفال يكبرونني سنّا.

استوقفني زعيمهم، ودون مقدّمات، وكي يبيّن أنّه لا يمزح، صفعني صفعة أفقدتني توازني، فأمسكني مساعدوه قبل أن أسقط، نزع المحفظة من يدي وفتحها، فشرعوا في تشتيت محتوياتها، وبينما كانوا يتخاطفون الأقلام صرخ زعيمهم خلفي مستعطفا!!

التفتّ نحوه، فرأيت والدي يحكم إمساكه من كتفه، وقد فر مساعدوه.

أمرني أبي أن أجمع أغراضي المبعثرة على الأرض، فهو لم يكن متأكّدا من صدقي، وظن أنّني كذبت بشأن المضايقات والتنمر، كي يتم نقلي للفوج الآخر، لأتمكّن من مرافقة أخوي، فتبعني خلسة ليقطع الشكّ باليقين.

بينما كنت ألملم أغراضي، هدّد أبي زعيم العصابة، وركله ركلتين وهو يطلق سراحه، بدأت أرتّب هندامي وأنفض عنه التراب، فطلب مني والدي ألّا أفعل، فامتثلت مستغربا.

أمسك يدي اليمنى بيده اليسرى، ووضع يده اليسرى على كتفي الأيسر، وجعلني ملاصقا لرجله، أراد أن أشعر أنّني جزء منه.

فجأة! توقّف، انحنى علي، وحملني ومحفظتي، وعندما لاح لنا باب المدرسة، قبلني، ووضعني على الأرض، لأكمل الطريق بجانبه.

اتّجهنا مباشرة إلى مكتب المدير، ما أشبه اليوم بالبارحة!

قص والدي على المدير ما حدث، وأراه ملابسي المغبرة، وطلب منه نقلي للفوج الآخر، موضّحا أنّ لي أخوين يدرسان بالمستوى الثالث، سيعملان على حمايتي. اقتنع المدير ووافق.

غادر والدي باتّجاه عمله، في حين انتظرت أخوي أمام المدرسة، وعدت معهما إلى البيت، وفي الطريق رويت لهما ما حدث. صارت الفرحة فرحتان، سأتخلّص من المعلّمة قاسية القلب، ولن أفترق عن أخوي، والأهم والدي الّذي هب لنجدتي.

في المساء، رافقني العون، وقدّمني لمعلمتي الجديدة، الّتي أجلستني مع المشاغبين والفاشلين: آخر طاولة في الصفّ المقابل لمكتبها، لم أبال ما دمت أستطيع رؤية السبورة، وسماع صوتها وهي تشرح.

كانت طيبة، لكنّها كانت تتعب بسرعة، وتخرج إلى الحمام كثيرا، كما أنّها كانت لا تطيق الروائح النفّاذة.

تأقلمت بسرعة مع التلاميذ الجدد، وأصبح لي أصدقاء، وبدأت علامات تفوقي تظهر، فسألتني عن اسمي الكامل، وأخبرتني أنها تذكر أختي الكبرى، الّتي كانت متفوقة.

تغيّر مكان جلوسي، إلى أن صرت في الطاولة الثانية قبالة مكتبها، يشاركني عادل طاولتي، وأصبحنا صديقين لا نفترق إلّا خارج المدرسة.

بعد شهر تقريبا، تغيبت معلّمتنا، ولم تحضر، وكانت تلك آخر مرة أراها فيها.

في البداية كان المدير يدخلنا إلى حجرة الدرس، ويأمر العون بمراقبتنا.

هه! سيراقب من؟! عصابة من الشياطين تتقافز وتتعارك، ويسمع ضجيجها من خارج المدرسة. لا أحد يخاف العون أو يحترمه، ومن جهته فهو لا يعرفنا، ولا يعرف آباءنا، ولن يجرؤ على تأنيب أو تأديب أي واحد منّا، خوفا من أن يكون ابن شخص مهم.

بقينا على هذه الحال خمسة أيام صباح مساء، وفي اليوم السادس وبينما نحن في قاعة الدرس، دخل علينا المدير ببذلته الرمادية، يتبعه شيخ هزيل أسمر، يرتدي جلبابا، وقميصا، ويضع على رأسه عمامة أخفت جانبا كبيرا من جبهته وأذنيه، وفي رجليه بلغة، كل ما يرتديه أبيض، لحية بيضاء خفيفة تغطّي وجهه، أطلق لها العنان عند ذقنه، فكان أشبه بالتيس منه بالرجل.

عيناه غائرتان تجعدت جنباتهما، وحاجباه رفيعان بدأ الشيب يغزوهما، خدّاه عبارة عن عظمتين يكسوهما الجلد، يضع في فمه عودا

من شجر السدر الصحراوي يستاك به، أنفه طويل وكبيرا، عنقه أسود من أشعة الشمس أو من الأوساخ.

رائحة عرقه هي ما جعلني أقول ذلك، وأيضا السواد الّذي يغطّي كمي القميص من الداخل، والأظافر الطويلة السوداء، والقدمان المغبران اللّذان يمكن لفأر أن يختبئ في شقوقهما.

اعتقدنا أنّ الضيف والد أحدنا أو جدّه، لكن المدير فاجأنا حين أخبرنا أنّه معلّمنا الجديد، وسيعوض معلّمتنا الّتي كانت حاملا، واقترب موعد وضعها لحملها.

ضحك بعض الأطفال من الخبر، لكن المدير كان حازما، وتوعّدنا بأقسى العقوبات إن اشتكى منّا معلّمنا الجديد، وغادر إلى مكتبه.

على بركة الله نبدأ. بهذه الجملة بدأ الفقيه عمله، وأفضّل أن أسمّيه فقيها.

سحب طاولة، وجعلها قبالتنا في المنتصف أمام السبورة، جلس على المكان الّذي نضع عليه كتبنا واضعا قدميه على قطع الخشب الّتي نجلس عليها.

جال ببصره في حجرة الدرس يبحث عن شيء ما، نزل من مكانه، توجه إلى المكتب، وأطل تحته، سار بين الصفوف إلى أن وصل قرب الخزانة في الخلف، صعد على طاولة قريبة، وبدأ يبحث في سقف الخزانة، نفض التراب عن يديه، واتّجه بسرعة نحو الباب وخرج.

تعالت همهماتنا، فيما قام البعض إلى السبورة، اثنان يراقبان الباب، وآخرون يرقصون قربها، لكنّهم سرعان ما عادوا إلى أماكنهم وهم يصيحون: إنّه قادم!! إنّه قادم!!

دخل الفقيه، الّذي يختلف عن السي الحسين، ابن القرية الّتي ولد فيها والدي، والّذي كان يزورنا في البيت عدّة مرات، وكنت أحب أن أغطس وجهي في جلبابه، لأستمتع برائحة الطيب الآسرة. دخل فقيهنا يحمل عصا طويلة كانت قبل قليل غصن شجرة قريبة من بيت المدير.

كلامه ليس مفهوما، فقد بدأت الشيخوخة تفعل فعلتها، لكن كلام الله نفهمه، نحن أبناء المسيد، أغلبنا درس التعليم الأولي بالكتاتيب القرآنية، ومنّا من لا يزال يرتادها.

صعد على منبره الجديد، وشرع يقرأ سورة الفاتحة، طالبا منّا بإشارات من يده أن نتلو كلام الله.

ما أجملها من لحظة! سنصيح بأعلى صوتنا ولن ينهرنا أحد.

كانت بدايتنا قوية، صوتنا يهزّ المدرسة، وتفنّنا في استغلال الفرصة كي نلعب: جمعنا أصابعنا وجعلنا أيدينا على شكل قواقع غطّينا بها آذاننا، فاختلط صوت الموج بتلاوتنا.

وحين مللنا من ذلك قربناها وأبعدناها بسرعة وتناوب من أفواهنا، ونحن تصيح كي نشكّل صدى لأصواتنا.

تمايلنا يمينا ويسارا، وكان الواحد منا يسقط من مقعده، ثمّ يقوم مسرعا ليعود إلى مكانه.

وضعنا أصابعنا في آذاننا وتلذذنا بما تفعله الاهتزازات بأدمغتنا الصغيرة.

لكن سرعان ما تعبت حلوقنا، وجفّت أفواهنا، وضعفت عزيمتنا، فبدأ الضجيج يخفت رويدا رويدا.

وما كان الراعي ليرضى، فهب مسرعا يوزّع ضرباته يمنة ويسرة على جديانه المجهدة الظمآى، طالبا منها مواصلة الثغاء بدون توقّف.

استمر الحال قرابة شهر أو يزيد، قرآن؛ وحبّذا لو كان قرآنا، هو صياح وصخب؛ قبل الاستراحة وبعدها، في الصباح وفي المساء،

لا شيء غير القرآن، حتى كرهنا الفقهاء وطريقتهم في تعليم القرآن، ومنّا من كره الدين.

بدأ أبناء الأغنياء يشتكون لآبائهم، والبنات المدلّلات اللائي لم يألفن الكتاتيب القرآنية رفضن الذهاب إلى المدرسة وأتعبن أمهاتهن اللائي كن يحضرنهن كل يوم، فكثر الغياب، وكثرت شكايات الأسر، فجاء اليوم الّذي تغيب فيه الفقيه، وعاد العون ليراقبنا لثلاثة أيام متتالية.

وفي اليوم الرابع، وجدنا أمام حجرتنا الدراسية شابة أنيقة تنتظرنا، طلبت منّا الدخول، ففعلنا، وقفت قرب السبورة تنتظر جلوسنا في أماكننا، منحتنا فرصة لنراها جيدا، ونتساءل من تكون؟

صمت مطبق يعم المكان، الكل يسبح في خيالاته، فأخبرتنا أنّها معلّمتنا الجديدة، وكنت أراها منقذتنا، وبفضلها حصلت على الرتبة الأولى.

العربي

كـ ان أبنـاء المـدن الأخـرى، ممّـن لهـم أقـارب في مدينـة العيـون، يفضّـلون القـدوم إليهـا لاكتشـافها وتجربـة حظّهـم فيهـا، أو اسـتغلال الفرصة لتحسين وضعهم الاجتماعي، وابن عمتي لا يختلف عنهم.

العربي شاب طموح، محب للحياة، يخلق جوا من الفكاهة والمرح من لا شيء، كنت أحبه، وأحب زياراته لنا.

كونه ضيفا منحه امتيازات لا يحظى بها أهل البيت، صرنا خدما في بيته بكل سرور، وكان يخجل ويتعامل كأنّه واحد منّا.

ورغم أنّ والدي يريان أنّ التدخين عادة سيئة، لأنها دليل على سوء التربية، كما أنّ والدتي تكره رائحة دخّان السجائر، فقد كان مسموحا له بالتدخين في البيت، وكنّا نضع مرمدة أمامه، وهو كان يعلم كل ذلك، فيتجنّب التدخين أمامنا.

لكنّني كنت دوما أكسر خلوته مع سجائره، حاول طردي مرات كثيرة، وعندما رأى إصراري وعنادي سمح لي بالبقاء معه شريطة أن أجلس بعيدا عن دخّان السجائر، وألّا أقترب منه إلّا حين ينهيها. قضاؤه لخمس سنوات أو أكثر في المدرسة، جعله مميزا في نظر والدي

الأميين، فحرص على تعليمنا، ومراقبة إنجازنا لواجباتنا المنزلية، وكان ذلك من أولى أولوياته.

صادف وصوله إلى البيت فترة الفقيه، فركّز جهوده علي، وكان كل مساء يناديني، يطلب مني الجلوس على كرسي، وحمل كتاب القراءة في يدي، فيأخذ كرسيه ويقلبه، واضعا صدره على المسند، ويسحبني ومقعدي إلى أن تلامس ركبتي ركبتيه، ويصبح وجهي مقابلا لوجهه، فأشم رائحة السجائر تنبعث من كل خلية في جسمه، ثم يمسك بيده اليمنى قطعة من بطني الصغير، مكان فوق السرة بالضبط، يمسكه بين سبابته وإبهامه، في البداية تدغدغني أصابعه.

أبدأ القراءة، فيقرص بقوة، لم يكن يحتاج إلى كلمات كي يخبرني أنّني أخطأت، أو تلعثمت، وكنت كلّما تألّمت من قرصاته، رفعت رأسي نحو السقف لأمنع الدموع من مغادرة عيني، لا أُصدر صوتا، لا أتأوه بل أعيد قراءة النص دون لحن أو خطإ لأجعل يده ترتخي.

ولكي أتفادى جلسات القرص، حرصت على القراءة خلال فترا خروجه من البيت، أو انشغاله عني، فصارت جلساتي معه مضيعة لوقته الثمين.

وهكذا تعلّمت أن أعمل مستقلّا، أنجز واجباتي بدون مساعدة أو مراقبة، أعرض عليه عملي حين أنهيه، فيعانقني ويدغدغني، ويطبع قبلة على خدّي.

صار يمدحني أمام والدي، وأخبرهما أنّه سيركّز على أخوي ليعلّمهما اللغة الفرنسية، الّتي بدآ تعلّمها هذه السنة، وإن لم يتعلّماها جيدا الآن سيصيران ضعيفين فيها دوما، وستؤثّر على مسارهما التعليمي.

وبالفعل بدأ تدريبهما، وكنت أردّد كلماته فيضحك، وكانت أمي تضحك أحيانا من الكلمات الفرنسية القريبة من بعض كلمات لغتنا الأمازيغية، وأحيانا كانت تهرول مغادرة الغرفة حياء بسبب كلمات عادية بالفرنسية خادشة للحياء في لغتنا.

في نظري كان لينا متساهلا مع أختي، وقاسيا غليظا مع أخي، الفتيات بطبعهن متفوقات في الدراسة، كما أنّ الجميع يرى أنّ مصيرهن الزواج، ولا ضرر إن فشلن في دراستهن، عكس الفتيان، فبدون تعلّم لن يكون لهم شأن في المستقبل، ولن يحصلوا على عمل جيد.

أصبحت لا أفارق العربي أينما ذهب، وكنت أحب أن أجلس معه على سطح منزلنا، كان يدخّن سجائره، وكنت أتأمل كثبان الرمال الّتي تغطّي ضفة وادي الساقية الحمراء المقابلة.

وما إن ينهي سجائره حتى أركض نحوه، أما هو فيأخذ لوحا خشبيا من الألواح المرمية هنا، ويبدأ الرسم، وأجلس قربه أراقبه وهو يرسم، وكنت أحب ذلك كثيرا.

كان يحول خطوط قلم الحبر الجافّ إلى لاعبين لكرة القدم، أنظر إلى الخطّ يتعرج تدريجيا ليصبح كرة، أو حذاء، أو رأسا...

كان ساحرا في نظري، من خطوط عشوائية إلى وجه له ملامح، ثمّ ينبت الجسد جزء بعد آخر ليكتمل في النهاية، هذا لاعب أشقر، وذاك لاعب أسمر، وذلك لاتني، لكن الغريب في الأمر أنّهم كلّهم يدخّنون، شيء لا يصدّق، لا يقبله العقل، لكن لا يحقّ لي التعليق، أو الانتقاد، فهو لا يصمت إلّا حين يرسم، كما أنّني صغير، لا أعرف شيئا عن الحياة، وعن عالم الكبار، وعلَي أن أحتفظ بملاحظاتي لنفسي، وإلّا فإنّ العصا لمن عصا.

تمّ قبوله في الجيش، فغادر بيتنا نحو الحدود، وترك غيابه فراغا في البيت.

حنان

خرجنا من القسم، إلى ساحة المدرسة، كانت خالية من الأشجار والنباتات، إلّا حيز ضيق قرب بيت المدير، والّذي كان يُمنع علينا الاقتراب منه، لأنّنا نتلفه.

تراب وحصى ونتوءات من صخرة كبيرة مدفونة عميقا، وعمود يحمل العلم الوطني يتوسط هذه الأرض الّتي وطأتها الدينصورات قبلنا، كان الجري ممنوعا حفاظا على سلامتنا.

كنت أسير في الساحة باحثا عن صديقي عادل، ببطء شديد أتحرك، أتفحص الوجوه بحثا عنه دون فائدة.

لن يجرؤ على الاقتراب من الركن الّذي يحتلّه كبار التلاميذ ويمنعوننا من الوصول إليه، لأنّ لهم أحاديثهم الخاصة، كما أنّنا كنّا في نظرهم مزعجون، ولا نكفّ عن الحركة.

أما هم فقد كبروا على اللعب، وبدأت تظهر عليهم علامات البلوغ، شواربهم كثّة، ولحيهم خفيفة، والفتيات اللائي أينعت أجسادهن، كن يخفين مفاتنهن خلف الجلابيب الفضفاضة، ونادرا ما يرتدين السراويل أو التنورات...

ربّما هو بينهم، فوالده قائد في الجيش، ولن يمسوه بسوء.

بينما كنت أفكّر وأبحث عنه، اصطدم بي طفل بقوة، ارتطم وجهه بمرفقي مباشرة، فقد كنت أرفع يدي لأحجب عن عيني أشعة الشمس.

سقط بقربي، نظرت إليه ولم أبال، فأمسكه مطارده قبل أن يقوم، وصاح به:

- أنّه دورك، عليك أن تطاردني. قالها مزهوا، فردّ عليه:
- لا لن أفعل!! لقد أسقطني هذا النحيف. يقصدني.

تحركت وتابعت بحثي عن عادل، وغير بعيد رأيت التلاميذ يتجمهرون حول الّذي اصطدم بي وهو يبكي. والسائل الأحمر الّذي لا يقدّر بثمن بدأ يتدفق من أنفه بغزارة، وإهداره يستوجب العقاب.

أخذوه إلى المعلّمة المكلّفة بالحراسة، ولم أهتم به وبهم.

أين عادل؟ سؤال شل تفكيري، لم أنتبه إلّا والحشد يتجه نحوي تتقدّمه المعلّمة ممسكة الطفل إياه بيدها اليسرى وأنبوبا أحمر في يدها اليمنى. أنبوت يستعمل لتمرير الأسلاك الكهربائية بين غرف البنايات، يحبه المعلّمون، ونكرهه.

أصبحت في مركز الحلقة البشرية، كل العيون ترقبني، بجانبي طفل يبكي أو يتباكى تجنّبا للعقاب، لأنه كان يجري، ومعلّمة غاضبة يتطاير الشرر من عينيها.

- هل هذا هو؟؟!! كان سؤالها للطفل فأجابها:
- أجل، أنّه هو!!!
- مدَّ يدك! قالت لي بعصبية.

هـه.. لنعاقـب الشـجرة لأنّ طفـلا لم يلتـزم بقـوانين المدرسـة واصطدم بها!

لم أناقش، ولم أدافع عن نفسي، مددت يدي مرات ومرات، نزلت الدموع من عيني قبل أن أتلقّى الضربة الأولى، كانوا ينتظرون رؤية رقصات ديك مذبوح كي يضحكوا، لن أمنحهم ذلك.

وبعد انتهاء حصّة الضرب، كانت دمعاتي تتجمع أسفل ذقني لتسقط في حضن الأرض العطشى، فتخفيها عن عيون بعض الّذين تبعوني ينتظرون انكساري، ينتظرون أن أشنّف أسماعهم بعويلي كي أبدو مثلهم.

توجهت مباشرة إلى حجرة الدرس، وجلست أبكي بكاء مكتوما عند عتبتها. فقد نسيت عادل، والبحث عن عادل، وانزويت في مكاني.

وحيدا كنت، لم يواسني أحد، ولم يسألني أحد عن فعلتي الّتي كنت بريئا منها، وهل نهتم بآلام الأشجار؟

وبينما أنا كذلك، إذ سمعت صوتا رقيقا:

- ما بك يا بني؟؟

هذا الصوت أعرفه، أنّه صوت معلّمتي، رفعت رأسي وقصصت لها كل شيء، حتى الأفكار الّتي جالت بخاطري بُحت بها، مسحت بكفّها وجهي الصغير، وأمسكتني من يدي، وأخذتني إلى الّتي ضربتني تستفسرها.

كانتا تصرخان، لكنّني لم أسمع ما قالتاه، كنت محمولا بيدها اليسرى، وجسدي الصغير ملتصق بخصرها. لأول مرة أرى التلاميذ من أعلى، لم أعرف من أين نبعت ابتسامة لترتسم على وجهي؟ اختلطت علي المشاعر، ونزلت دمعة أخرى على خدّي، لكن طعمها مختلف، دمعة الفرحة، أنّها فرحة الاكتشاف: هذا المخلوق الكبير المخيف الّذي نسميه معلّمة، يحمل كل هذا العطف والحنان.

زادت فرحتي حين حملتني إلى القاعة، لم تنزلني إلّا حين أجلستني على كرسيها الجلدي الوثير خلف مكتبها، وضعتْ أمامي ورقة بيضاء، وأخرجتْ أقلام التلوين من الدرج، ثمّ طلبت مني رسم ما

يحلو لي، وأن أكمل فترة الاستراحة على مكتبها، وقبل أن تتوجه إلى الخزانة ناولتني قطعة حلوى لذيذة لم أر مثلها من قبل، وضعتها في جيبي. وبدأت أرسم، وكانت هي تكتب في دفاترنا نماذج لحرف اليوم.

بقينا كذلك إلى أن دقّ الجرس، ودخل زملائي علينا، فقامت من مكانها، وضعت الدفاتر على المكتب، وعد إلى مكاني قرب عادل.

مسني تصرفها في مقتل، وطغت نشوة الإنصاف الّتي أحسستها على كل شيء.

وبدل أن يتحدّث التلاميذ عن حصّة الضرب الّتي تعرضت لها، سيتحدثون عن ابن الخبّاز الّذي تشاجرت بسببه معلّمتان، والّذي حملته المعلّمة، وأجلسته على مكتبها، وعاملته بلطف. وهي لا تعلم أنّها بفعلها ذلك زرعت بذرة الثقة في نفسه، وأحس أنّه طفل مميز ليس كغيره من الأطفال.

إنسانة

نهاية السنة، حفل التميز، ساحة المدرسة ممتلئة عن آخرها، آباء وأمهات وأطفال. الكل في زينة وكأنّهم مدعوون إلى عرس، أو بالأحرى فرحون بالعيد، كنت أنا وقلّة من الأطفال نرتدي ثيابا قديمة، لكنها نظيفة،

- أمسكتني أختي الكبرى من يدي مخافة أن أضيع، وتوجهت بي وسط الحشد نحو مكان تسليم الجوائز على المتفوقين، كان المنظر مهيبا، جميع المعلّمين جالسون على الكراسي، والمدير يتوسطهم، وأمامهم منصة يقف عليها شخص يعلن أسماء الفائزين، ويطلب فردا من طاقم المدرسة ليسلّمهم الجوائز.

كنت أنظر إلى الوجوه والملابس، ربطات عنق وبذلات، أو جلابيب مطرزة صفراء أو بيضاء للرجال، وزاهية الألوان للنساء، التقت عينانا، لن أنسى ابتسامتها، جلباب أخضر مطرز بخيوط ذهبية، ونظارتان شمسيتان تغطّيان نصف خدّيها.

انتظرتْ سماع اسمي، فهبت واقفة، سحبتني أختي نحو المنصة، فأوقفها المدير:

- تعالي يا ابنتي، أين والدك؟؟

- والدي مشغول، إنّه في عمله، لم يسمح له مشغّله بالغياب.
- ووالدتك؟ آه! والدتي، تلك الإنسانة الطيبة، هل ستخبره أنّ حياءها يمنعها من حضور حفل فيه رجال؟
- أمي في البيت. أجابته أختي.

كانت المعلّمة قد وصلت إلينا، أمسكتني من كتفي وألصقتني بها وكأنّها تحميني، علمتْ من المدير طبيعة المشكل، فاقترحت عليه أن تنوب عن والدتي، لكنّه رفض بشدة، مدافعا عن حياد طاقم المدرسة. غضبت معلّمتي، وانسحبت من الحفل وهي تسحبني من يدي.

وقفنا عند باب المدرسة، فاستأذنت أختي كي تسمح لها بأخذي معها، وكان لها ما طلبت.

أخذتني باتّجاه سيارة عسكرية من نوع لاند روفر، أخضر غامق لونها، تحمل لوحتها السوداء أرقاما بيضاء بجانبها حرفان عربيان باللون الأحمر: ق س.

لم أكن أعلم أنّ زوجها عسكري، فتح لنا جندي باب السيارة الخلفي، ثمّ انطلق بنا نحو البيت.

أنّها تسكن بالقرب من مقر العمالة، كانت هذه المساكن تمنح لكبار الشخصيات المدنية والعسكرية، زوجها إذا رجل مهم، فلماذا يسمح لها بالعمل؟ سؤال بريء تبادر إلى دهني حينها.

فتحت باب بيتها وسحبتني بلطف إلى الداخل وهي تردّد كلمات الترحيب، وكأنّ ضيفا مهما يزورها.

أخذتني إلى المطبخ، وضعت أمامي قطعة كعك تغطّيها طبقة كبيرة من الكريمة البيضاء، وكوب عصير بارد، كان حجمهما كبيرا، ناولتني ملعقة، وطلبت مني أن أستمتع بمكافأتي، في حين اكتفت هي بكوب عصير، ورغم أنّني لم أكن جائعا فقد التهمت الكعكة التهاما، فإذا بزوجها يدخل علينا، فأخبرته:

- هذا هو... هه من هو؟ هل تقصدني؟ ومن أكون أنا مقارنة به؟

توجّهتَ نحوه، مدّ يده ليصافحني، فانحنيت عليها لأقبلها، لكنّه سحبها بسرعة. أخبرتْه بمشكل الجائزة الّتي لم أتسلّمها، وتابعا حديثهما باللغة الفرنسية الّتي لا أفقهها، ثمّ خاطبني:

- اهتم بدراستك، وكن متفوقا دوما، أنا فخور بك يا بني.

كانت هذه الكلمات وساما علّقه على صدري، أنا الطفل الصغير المنبر باللباس العسكري، الحالم بأن يلبس يوما ما زيا مشابها.

أنهيت طبقي، ودّعنا الزوج، وأخذتني إلى الخارج، ركبنا السيارة مرة أخرى، سارت بنا قليلا ثمّ توقّفت، طلبت مني أن أنتظرها، كنت أنظر من جهة السائق لأعرف أين نحن، لكنّني بالكاد لمحت واجهة المكتبة، فقد كان السائق يحجب عني الرؤية بجسده الضخم.

عادت تحمل في يدها هدية ملفوفة بعناية في ورق ذهبي لمّاع، مزركش بالعصافير والأزهار الملونة، جليت بقربي، انحنت علي وضمتني، سلّمتني الهدية قائلة:

- هذه جائزتك، أنت تستحقّها، ولا تسمح لأحد أبدا أن يحتقرك، ولن يتأتى لك ذلك إلّا بالعلم والتفوق.

كنت أتحسس جائزتي بل هديتي، أمسكت يدها أريد أن أقبلها فضمتني مرة أخرى وضحكت، ثمّ سألتني عن مكان إقامتنا، فأرشدتُ السائق إلى بيتنا.

حملتنا السيارة إلى حينا وتوقّفت قرب باب بيتنا، طلبت مني النزول، وودّعتني بقبلة وعناق حار، انتظرت في السيارة، وبعد أن

فتحت أختي الباب، لوحت لي بيدها، ورأيت السيارة تختفي عند المنعطف.

كم أتمنى لو أذكر اسمها، لو ألتقيها مرة أخرى.

الجحش!

مـ رت العطلـة الصـيفية الأولى مـن مشـواري الدراسـي كحلـم، سرعان ما انقضت.

لعبـت مـع أبنـاء الجـيران مـن الفقـراء أمثـالي، ممّـن لم تسـمح لهـم ظروفهم بالسفر إلى مدن المغرب البعيدة، حتى من لم يسافروا بسبب عمـل الأب، تمكّنـوا مـن الاسـتمتاع برمـال الشـاطئ، ومياه المحيط الأطلسي الباردة في هذه الفترة من السنة، وقضوا أسابيع في مخيمات المصطافين، لا يشغلهم شيء.

في حـين كانـت الشـمس تشـوي جلـودنا، والأسـفلت يطهـو أقدامنا، تشابه الأيام جعلها تمر سريعا، تفلت من فخّ الذاكرة، اللهم يوما أو يومين.

الأول كان عطلة والدي الأسبوعية، والّتي اختار لها يوم الاثنين. أذكر أنّه أخذنا إلى محطّة انتظار حافلة فم الواد، الشاطئ البعيد عن العيون بخمس وعشرين كيلومترا.

في ذلك اليوم تعلّمت من والدي أنّ الإشارة بالسبابة حرام أو ممنوع، وأنّه يجب ألّا يعلم الناس عم نتحدث، وذلك حين لم أستطع

منع نفسي من الإشارة إلى الطائرة الضخمة المستلقية على مدرج المطار المقابل للمحطّة.

كانت تنتظر موعد إقلاعها، لكن ما أثار انتباهي أكثر هو ذلك الأنبوب المرقّط بالأبيض والبرتقالي، تداعبه الرياح وهي تحاول الإمساك به، فيهرب منها يمنة ويسرة، ولا تسمح له الخيوط الّتي تثبته إلى العمود المعدني بالتحليق بعيدا أو الاختباء.

سألت عنه والدي وأنا أضم يدي إلى صدري وأشير إليه بسبابتي، فضحك ضحكة مدوية، وضمني إليه قبل أن يجيب أنّه يحدّد اتّجاه الرياح، فسألته مرة أخرى:

- ولماذا يريدون معرفة اتّجاه الرياح؟
- يا بني!! تعلّم كي لا تصير حمارا مثلي!!!!

فاجأني ردّه، جعل الأسئلة تتناسل في جمجمتي.

جملة نسفت كل ما أعرفه عن والدي، ذلك الرجل الصلب، الّذي يحاول ويحاول قبل أن يطلب المساعدة، يقوم بكل شيء بنفسه، يصلح المذياع والتلفاز، لم يدخل بيتنا كهربائي أو صباغ أو نجّار أو رصاص قط، والدي يملك صندوق أدوات كبير، ويجيد إصلاح كل شيء، متعدّد المواهب، ورغم ذلك فهو حمار؟؟!!

ما أروع التعلّم! ولن أخذلك أبي. رغم أنّ الحافلة خذلتنا ولم تأت.

في المرة الثانية، وفي نفس المكان، جاءت الحافلة، وحملتنا إلى الشاطئ، لأقع في عشق البحر من أول نظرة، لكن الرياح القوية الّتي كانت تصفعني بحبات الرمل منعتني من الاستمتاع.

ومياه المحيط الباردة جعلتني أعاني قبل أن أستعيد حرارة جسمي أنا الخديج الّذي لا يطيق البرد، وإن ارتفعت حرارته، فتحت الباب مشرعا لهلوساته.

السنة الثانية

جمال

ء لامات المرض تعود من جديد، يبدو أنّني سأعاني مرة أخرى، فلم يمض على شفائي سوى أسبوعين، وها هو المرض يحن إلي، ويقرر زيارتي.

تحاملت على نفسي، وقمت من فراشي، وأنا أغالب الرغبة الملحة في الخلود إلى النوم، اختارت لي أختي ما ألبسه، وهذه المرة لم أتذمر ولم أجادل، كسرتان أو ثلاثة من الخبز المغمس في زيت الزيتون، ورشفات من شاي حار بالنعناع.

كنت شاردا، بالكاد أستطيع البلع، ولم أطق صوت المذياع الموضوع قبالة والدي على المائدة، حملت محفظتي، وخرجت من البيت.

هذا عامي الثاني في المدرسة، تجمهر التلاميذ عند بابها ينتظرون فتحه: جماعة تحمل الدفاتر تحفظ بعض الدروس، وأخرى تعالت أصوات أفرادها وهم يتحدّثون عن بطل الفنون القتالية بروس لي الّذي أسمع عنه ولم أره، وثالثة يتقاسم أفرادها ما لديهم من حلوى ومكسرات، وهذا ينقل واجبه من دفتر زميله، والبقية يركضون هنا وهناك...

من كثرة إجهادي، جلست على الرصيف المقابل لباب بيت المديرة الجديدة، جاءني جمال؛ ابن قبطان رجال الوقاية المدنية؛ وهو يركض ويصيح:

- قم لنلعب، سنتبارز.

أخبرته أنّني مريض ومتعب، ولن ألعب معه اليوم، ولا قوة لي كي أتبارز، أو أفعل أي شيء آخر، بدأ يلح علي، فرفضت وأصررت على الرفض، فانطلق باتجاه زملائنا، يضرب هذا، ويركل ذاك.

طأطأت رأسي، وبأصبعي بدأت أرسم خطوطا على كومة التراب المتجمعة بين قدمي وأنا أفكّر: جمال في المدرسة نقيض جمال في البيت، زرته مرة، كان وديعا وهادئا ولطيفا. لم ينتشلني من تفكيري إلّا صوت الجرس يعلن فتح باب المدرسة.

قمت من مكاني. كان رأسي ثقيلا، لم أستطع رفعه، وكان علي ذلك، على الأقل سأتجنب الضربة الّتي أسقطتني، فجمال لم يستسغ رفضي اللعب معه، ولم يفهم أنّني مريض، قلّد بروس لي، فقفز قفزة وبرجله ركلني على صدري وألقاني إلى الخلف، ليرتطم رأسي بالنتوء المتبقي من الرصيف القديم.

لا أدري من أين جاءتني القوة للقيام بسرعة، ربّما الخوف من التأخّر عن موعد تحية العلم وترديد النشيد الوطني، وربّما هي الرغبة في إعطاء انطباع للآخرين أنّني قوي وجلود.

المهم أنّني قمت بسرعة، وانحنيت على محفظتي الملقاة، حملتها وكأنّ شيئا لم يحدث، وأنا أعتدل قائما، أحسست بالدفء ينتقل من قفاي إلى كتفي ثمّ ظهري، مددت يدي إلى مكان ارتطام رأسي بالرصيف لأرجعها حمراء فاقع لونها، والعجيب أنّني لم أبك، ولم أبال.

تجمع التلاميذ حولي، وسحبني الكبار إلى المديرة، الّتي هرعت إلي تتفحصني، كنت شبه مخدّر، حملتني بين ذراعيها، وأدخلتني حمّام منزلها، نزعتْ قميصي وغسلت الدماء بعد أن توقّف النزيف.

تركتني واقفا في الحمام، وعادت تحمل قميص ابنها وسرواله، فغيّرتْ لي ملابسي، كنت كدمية في يد طفلة صغيرة، احتفظت عندها بتلك الملطّخة بالدماء، تلك الّتي اشتراها لي أبي بمناسبة عيد الفطر الماضي، والّتي أحب ارتداءها.

اقتادتني إلى مكتبها، استدعت العون، وأمرته أن يأخذني إلى المستوصف القريب.

أمسكني من يدي يسحبني وأنا أهرول لأجاريه في مشيته، دخلنا المستوصف.

كان يعج بالأمهات اللاتي جلبن صغارهن من أجل التلقيح، أو اللواتي يعاني أبناؤهن من التهاب اللوزتين مثلي، شققنا طريقنا بينهم، وبصعوبة وصلنا قاعة العلاج.

بوزرته البيضاء، وشاربه الكثّ، استفسر الممرض:

- ما به؟؟ يقصدني.

قص عليه الحارس ما سمع، وأراه مؤخرة رأسي، تفقّدها، ضغط على مكان الجرح بيده عدّة مرات، تألّمت، لكنّني لم أصدر صوتا، ولم أتحرك، حمل قطعة قطن، بلّلها بسائل أحمر، لطخ به مكان الجرح، وجانبا من قفاي.

سألني إن سبق لي أن أخذت حقنة في البطن، وحركت رأسي نافيا الأمر، وكنت أتخيل هذه الحقنة الغريبة، وإن كانت مؤلمة أم لا؟

أخبر الممرض العون أنْ يعود بي بعد اقتناء لقاح الكزاز. وهكذا تخلّص منا.

عدنا أدراجنا إلى المدرسة. أخبر الحارس المديرة بطلب الممرض، نظرت إلي وخيرتني بين العودة إلى المنزل، أو الالتحاق بزملائي في قاعة الدرس، فاخترت الثاني، فرأسي كان بحاجة لهذه الضربة، ولم يعد يؤلمني.

رافقني الحارس إلى القسم، وأخبر المعلّم بما حدث، فسمح لي بالدخول. مكاني فارغ، وجمال غائب.

استفسرت زملائي، فأخبروني أنّ المديرة طردته بعد أن نال عقابه، وطلبت منه ألّا يحضر إلّا برفقة والده.

ردّ اعتبار

م علّمي رجل متواضع، فهو ليس كباقي المعلّمين، يتصابى في القسم، لا يترفّع، يجالس الفقراء، يحييهم، يحدّثنا بأدب، ويخاطبنا "بابا" للذكور و"ماما" للإناث.

لم يكن ديكتاتوريا كالآخرين رغم أنّه صارم، إياك أن تُغضبه، كان لدينا هامش من الحرية.

كنت مفضّلا لديه، يناديني كلّما أراد أن يشرح عبارة لم تهضمها عقولنا الفتية، فكنت مساعده في التمثيل: فمرة كنت طاوسا وهو الثعلب، ومرة كنت ثعلبا وهو القنفذ.

كان دائما يطلب مني أن أرفع صوتي أثناء القراءة، وكان يفضّل أن نجلس جلسة مختلطة كل ولد بجانب بنت إلّا المتعثّرين، الّذين ألفنا أن نراهم في المقاعد الخلفية منبوذين من الجميع، وكأن فشلهم معد، لا يقترب منهم أحد، ولا يرافقهم أو يلعب معهم أحد.

لا أدري ما الّذي جعلني أكسر هذه القاعدة، ربّما هي بذرة الثقة الّتي زرعتها في معلّمتي السابقة، بل أكيد هي الّتي جعلتني أرافقهم، وأكلّمهم، وألعب معهم أثناء الاستراحة، وأحيانا أشرح لهم،

فقد كنت أشفق عليهم، وكانوا يحبونني، ويدافعون عني إن اعترض أحد سبيلي.

النظيفي معلّم القسم الثاني بمدرستنا، البعض يهابه، لكنّني كنت أقدّره وأحترمه، فهو يعرف أبي، وكان يصافحه كلّما التقاه في الشارع. هذا المعلّم جعلني أكتشف حبي للرسم الّذي كنّا ننتظر حصته بشغف كبير. وكان يرسم لنا على السبورة خطوطا ويحولها إلى أشكال رائعة المنظر: شمعة وكتاب وكرسي خلف طاولة وكأس بها ماء ...

كان يطلب مني أن أرسم أشياء جميلة نزين بها قاعتنا، وكنت غالبا ما أرسم السفن، كانت كل رسومات السفن المعلّقة على الجدار من إبداعي.

لا أعلم لماذا كنت أرسم السفن بالضبط؟! ربّما هي رغبة في الهروب بعيدا، وربما لأنّ الحياة الّتي نعيشها عبارة عن سفينة تحملنا نحو أحلامنا، هذه الأحلام الّتي سألَنا مرة عنها:

- ماذا تريد أن تصبح في المستقبل؟؟؟

اختلفت إجاباتنا، كنت أحلم بلباس عسكري، وبفضله أصبحت أحلم وأفكّر أن أصبح مثله، معلّما محبوبا من التلاميذ.

كان يشبه عمي ادريس، بطل تلك السلسلة الّتي سلبت عقولنا ونحن أطفال، وهذا زاد من تعلّقي به، ورغبتي في أن يفخر بي.

دخلنا إلى قاعة الدرس، يبدو أنّنا لن ندرس اليوم، فمعلّمنا مشغول بوضع نقط الامتحان، وعلى مكتبه وضع دفاترنا ليصحح إنجازاتنا، وأمامه دفاتر الامتحان الّتي يدون فيها نتائجنا.

كان يكتب قليلا، ويرتشف من فنجان شاي قربه، وبين الفينة والأخرى يخرج سيجارته، يشعلها ويقف قرب الباب ليدخنها بسرعة قبل أن يعود إلى مكتبه.

طلب منّا أن نحفظ نص الطبل والثعلب، وكنّا نزعجه بضجيجنا، فكان يقطع الضوضاء بضربة من كفّه على المكتب، فيعم الصمت المكان، وبين الفينة والأخرى يرفع رأسه متوعّدا أحدنا، لكنّه لا ينفذ وعيده.

أنهيت واجبي، وكذلك فعل جمال ومارية وآسية، فاقترحت مارية الّتي تجلس بجانبي أن نلعب لعبة.

أخرجت علكة وضعتها في فمها، وأخبرتنا أنّها ستخبئها داخله، ومن يخمن مكانها تهديه علكة جديدة، ليخبئها بدوره.

لم أتحمس للّعبة، فقد كنت أعلم مدى كره المعلّم للعلكة ومضغها في القسم، فلم أشاركهم، لكنّهم ألحوا علي أن أكون حكما، فقبلت.

بدأت اللعبة دورة تتبعها أخرى، كنّا نتجادل كثيرا، ونسينا أنفسنا. انتشلني صوت المعلّم وهو يناديني، التفتّ إليه فأشار إلي أن أقترب منه، قمت من مكاني فرحا، لعلّه يريد أن يرسلني إلى المديرة لأحضر له شيئا، أو ربّما هي قنينة الماء فرغت ويريدني أن أملأها...

وقفت أمام المكتب، فأشار إلي أن ألفّ وأقترب منه، ففعلت، هذا أمر مهم يريد ألّا يسمعه أحد من الجالسين قرب المكتب.

عم الصمت المكان، وبدأت العيون ترقب ما يحصل، سرت مزهوا مفتخرا أمام الجميع، اقتربت كثيرا من معلمي، لكنّه لم يتكلّم، فاقتربت أكثر، فإذا بكفه تنزل على خدي الأيسر، تاركة آثار أصابعه مطبوعة باللون الأحمر على وجهي.

جسدي التفّ وأصبح مقابلا للباب، فزادني ركلة برجله على مؤخرتي، جعلتني أقفز من مكاني، فأصبحت أمام السبورة مباشرة، حينها استوعبت الجملة الّتي قالها:

- لماذا تمضغ العلكة؟

أجهشت بالبكاء، وعدت إلى مكاني بعد أن أمرني بذلك، وسمعته بصعوبة كبيرة بسبب الطنين المنبعث من أذني.

دافعت آسية عني لكنّها أخبرته أنّ جمال هو من كان يمضغ العلكة وحده.

ثارت ثائرته، لم أره من قبل في تلك الحال، وخصّص لجمال حصّة من الضرب، جعلته يكره العلكة ومن يبيعها أو يمضغها.

بعد ذلك ناداني، أجلسني على فخده، وناولني كعكا من رفّ مكتبه، وطلب منّي أن أقبله كعربون مسامحة على الخطإ الّذي وقع فيه.

علمت حينها أنّ المعلّم إنسان، وأنّ من المعلّمين من فضّل أن يتخلّى عن إنسانيته، ومن الأطفال من كان شيطانا بزي ملاك، فقد كنّا جميعنا نمضغ العلكة ونلعب بها.

استراحة

نستمع للحوار، ننصت جيدا، نفهم ما يقال، ثمّ يأتي دورنا لنقوم إلى السبورة ونمثّل المقطع أمام زملائنا والمعلّم.

نتعلم الأساليب والتحويلات وتصريف الأفعال وتركيب الجمل، هكذا تصبح لدينا قدرة على التعبير بطلاقة عن مشاعرنا وأفكارنا بلغة عربية فصيحة، إنّه جوهر درس التعبير.

أما درس القراءة فكان يركّز على نصوص من ثلاث فقرات أو أربع، نقرؤها بطلاقة، نستخرج أفكار النص، ننسج على منوال أساليبه، وننجز تمارين تربط بين الدرسين: فيها تحويلات وصرف

وأكثر شيء يعجبني هو تمرين ألاحظ وأحكي، حيث يطلب منّا أن نلاحظ الصور، ونتحدّث عن موضوعها، مستعملين جملا صحيحة ومترابطة.

أما الرياضيات فهذه السنة نتعلم عن الأعداد من صفر إلى تسعمائة وتسعة وتسعين، وما يرتبط بها من كتابة وقراءة بالأرقام والحروف، تمثيلها ومقارنتها وترتيبها، مع إنجاز عمليتي الجمع والطرح، وحل مسائل مرتبطة بها، أو بقياس الطول والكتلة، إضافة إلى الأشكال الهندسية المعروفة وطريقة إنشائها.

وتتكون دروس التربية الإسلامية من القرآن الكريم وهذه السنة لدينا تذكير بالحزب الستين الّذي درسناه السنة الماضية، يليه الحزب التاسع والخمسون مقرر هذه السنة سنرتّله، ونفهم معاني سوره، ثمّ نحفظها. كما سنتعلّم الصلاة وما يرتبط بها، وبعض الآداب الإسلامية.

يوميا تعبير فقراءة فكتابة فرياضيات ثمّ تربية إسلامية، حصتان للتعبير والقراءة والرياضيات، وحصة للكتابة والتربية الإسلامية، نصف ساعة للحصة، تتخلّلها استراحة.

في خضم كل هذا كان السي النظيفي يحرص على إشراكنا في العمل، نمثّل معه الأدوار، نمسك معه المسطرة، نجيب على السبورة، نقدّم شرحنا أمام زملائنا، لكن حرصه الأكبر كان تخصيص خمس دقائق الأخيرة لنشاط تربوي ترفيهي، كأن نردّد نشيدا، أو نلعب لعبة القيام والقعود، أو لعبة حكّ أعضاء الوجه، وأجملها لعبة الحركات حيث تتوج ببطل الحركات الّتي فزت بها مرة أو مرتين.

أحيانا يغدرنا الوقت ويرنّ الجرس قبل أن نرفّه عن أنفسنا، فتبدو الخيبة على وجوهنا جميعا، فكان يبتسم ويعدنا أن يعوضنا.

بعد شهر تغيّر معلّمنا، مرت حصّتا الصباح والمساء، وبدل أن يلعب معنا وقف عند باب حجرة الدرس، اتّكأ بكتفه الأيسر على إطار الباب، أدخل يده في جيب سترته، أخرج علبة السجائر، أشعل واحدة، نفث دخّانها خارج الحجرة، وأعاد العلبة إلى جيبه، ووقف يدخّن في انت\ار جرس الخروج.

بدأنا نتهامس، تساءلنا عن سبب حرماننا من الألعاب والأناشيد، لنتّفق في الأخير أنّ من حقّه أن يستريح، لا ضير إن أخذ قسطا من الراحة فهو يحبنا، ويعمل بجدّ ليعلّمنا.

تكرر الأمر في الأيام التالية، وأصبحت حصّة الترفيه رغم قصرها في خبر كان.

لم يتخل معلمنا عن طريقته في التدريس، يحاول دوما تقريبنا من الدروس، فنتعلّم بحواسنا، بدل التلقين الأجوف، أربعة أيام متتالية بدون ترفيه، اليوم الخامس يوم جمعة، وهو يوم عطلة،

صباح يوم السبت، أنهينا جميع الدروس، وتبقّى معنا متّسع من الوقت قبل الخروج، ولم نتذكّر أنّه طلب منّا أن نحضر دفاتر الرسم إلّا حين خرجت من فمه أجمل عبارة سمعتها منه:

- خذوا دفاتر الرسم! سأعلّمكم كيف نرسم الشمعة.

تعالت صيحاتنا، وأسرعنا في تنفيذ طلبه، سمعت بعض الأوراق تُمزّق، فالتفتّ لأجد البعض لم يحضروا دفاترهم، ودون تفكير مزّقت ورقتين وشاركت زملائي، كان معلّمنا ينظر إلينا بفخر وفرح.

عم الصمت المكان، لأول مرة أسمع أنفاسي داخل القسم. رسم مستطيلا على السبورة وقال:

- هذه هي الورقة الّتي أمامكم.

وبدأ يرسم، رسم شكلا بيضاويا في الأعلى، مر بين الصفوف ليتأكّد أنّنا نرسم، أسرع نحو السبورة، وطلب منّا وضع الأقلام والانتباه، ثمّ قال:

- يا أبنائي، إنكم ترسمون، تخلقون شيئا من العدم، الرسم لا يحتاج إلى العنف، كونوا لينين مع الورقة، فهي تشبهكم، هشّة رقيقة، لا تؤلموها بالضغط على القلم. اتفقنا!

كان ردّنا بصوت واحد:

- نعم أستاذ.

عاد ليمر بين الصفوف، البعض قلبوا صفحة الدفتر ليعيدوا المحاولة، تعالت أصوات تطالب بورقة جديدة.

علّق على رسومنا: هذه دائرة وليست بيضة، لماذا رسمتها صغيرة جدا؟ إنها مائلة... كانت ملاحظاته دقيقة، تدفعنا لنظهر أحسن مهاراتنا.

توجه إلى السبورة مرة أخرى، ورسم خطّا عموديا من مركز البيضة إلى الأعلى، ثمّ خطّين عموديين متوازيين ومتقايسين من طرفي البيضة إلى الأسفل، أغلقهما بقوس.

عاد ليرسم قوسين آخرين يحيطان بالخط العمودي في الأعلى وبداخلهما قوسان آخران أصغر حجما، أنهى الرسم ببيضة أكبر من الأولى تحيط بقاعدة الشمعة، ثمّ لون الرسم. ومع كل خطوة كان يمر بين الصفوف ويوجهنا.

زاد حبي للرسم ولمعلّمي الّذي حولني إلى ساحر يلعب بالخطوط فيحولها إلى أشكال، وتذكّرت العربي ولاعبي كرة القدم.

انتهت الحصة، وقد غمرنا شعور بالفخر لأنّنا استطعنا لأول مرة أن نخلق من العدم شيئا نعرفه جيدا.

ذكّرنا بواجباتنا المنزلية الّتي سيراقبه يوم الاثنين، ونهانا أن نضيع وقتنا في اللعب يوم الأحد عطلتنا الأسبوعية الثانية، ختم كلامه بأن

أخبرنا أنّ حصّة الرسم ستكون كلّ سبت حصّةَ استراحة، لكن من لم يجتهد ويتعب لا يستحق الاستراحة.

تسرّع

م علّمكم مريض، ولن يحضر...هكذا خاطبتنا المديرة وهي تطلب منّا أن نجمع أدواتنا، وأن نخرج بنظام إلى الساحة.

تمّ تقسيمنا إلى مجموعتين، المجموعة المحظوظة ستلتحق بتلاميذ المستوى الثاني عند المعلّمة، أما المجموعة الثانية فيرحب بهم معلّم المستوى الثالث، وكنت منهم.

أحسسنا بالغبن، فالمعلّمة معروفة بحبها للأنّشطة الفنّية، وتلاميذها يحفظون ما يزيد عن عشرين نشيدا وأغنية من التراث المغربي وعددا من الموشّحات، كما أنّها مسؤولة عن فرقتي المسرح والرقص في المدرسة.

دخلنا واحدا واحدا والمعلّم عند الباب مادّا يده نقبلها، بدأ الصياح والضجيج، فتلاميذه يدعون معارفهم وأصدقاءهم منّا للجلوس بينهم، اضطررنا للتزاحم، فجلس ثلاثة تلاميذ على كل طاولة، لا زال المعلّم يحدّث المديرة ما أعطانا هامشا من الحرية.

بقيت عند السبورة لأنّني لم أتلقّ أية دعوة، كما أنّ محاولاتي للانضمام إلى تلاميذ المستوى الثالث قوبلت بالرفض: ابن الخباز لن

يجلس قربنا، هذه ذريعتهما، كما أنّ الأماكن قرب من أعرفهم سبقني إليها غيري.

غادرت المديرة نحو مكتبها، ودخل المعلّم رزّوق، وبنظرته الثاقبة تصفّح الوجوه، فإذا بالصمت يعم المكان، وبنبرة دافئة خاطبنا نحن الواقفين عند السبورة، نحن الّذين رفض الآخرون قبولنا بينهم، نحن المنبوذين:

- ألم تجدوا مكانا؟

وبصعوبة تخرج كلمة "بلى" من فمي، فما سمعته عن هذا المعلّم، من تلاميذه الحاليين والسابقين، جعلني أتسمر في مكاني كلّما رمقني، فما بالك إنْ وجه حديثه إلي؟

رعب حقيقي كان ينتابني، كنت أحس بحركة غريبة في أمعائي، كأنّها خيول من الغازات تتسابق في نفق مظلم نحو الخارج، بالكاد أتحكّم فيها وأمنع نفسي من الضراط، فيصعد الدم بقوة إلى رأسي، ويبدأ جبيني بالتصبب عرقا، يكون قليلا في البداية لكنّه يصير ينابيع تجعل وجهي أحمر براقا، دقّات قلبي تتسارع، وتبدأ المعاناة مع الحوار الداخلي.

فبدل أن يعمل عقلي على التفكير في حل، يبدأ في محاورتي: اليوم يوم الحساب، ستدفع الثمن غاليا، ستصير أضحوكة في المدرسة، ستصنع لنفسك لقبا لن يفارقك إلّا حين توضع في قبرك ... وأجاهده لأسمح لحواسي بنقل ما يحدث، بالكاد أستطيع سماع الكلمات، ولساني يصير جلمودا ثقيلا، حتى يخيل إلي أنّني فقدته، يجفّ فمي، وبصعوبة أجد ريقا لأبلعه لعلّه يرطّب حلقي، قدماي لا تحملانني، وتصبحان خفيفتين، تنتظران فقط إشارة لتنطلقا دون توقّف.

عقلي يخونني مرة أخرى، وها هي أغنية لا أدري مصدرها، لكنّها تصف حالتي، والغريب في الأمر أنّها باللغة العربية:

اصفر وجهه

واشتدّ خوفه

وزم ثغره

وبح صوته

اليوم يومه

سيتم ضربه

أنّه يستهزئ بي، هذه الأغنية ستلازمني، سيتردّد صداها داخل جمجمتي، كلّما انتابني الخوف في المدرسة، وما تخلّصت منها إلّا في المرحلة الثانوية، حين كفّ عن ترديدها.

يد المعلّم رزّوق على كتفي وأنا منصاع، لا حيلة لي، ظننته سيعاقبني.

سحبني لطف وأخذني إلى المكان الّذي سأجلس فيه، ولكي يطمئنني ابتسم في وجهي، وبادرني، كأنّه يحاول إقناعي بتغيير حكمي عليه:

- لا داعي للخوف بني، فأنت لم تفعل شيئا يستدعي العقاب.

كانت هذه الجملة كافية لتبدّد الخوف الّذي اعتراني، وارتسمت ابتسامة باهتة بلهاء على وجهي، في حين تعالت ضحكات التلاميذ، وكانت التفاتة منه نحوهم كافية لردعهم.

بدأت الطمأنينة والسكينة تتسربان إلى قلبي، فتناقصت نبضاته، واستعدت توازني، فقد ذهبت أعراض الخوف كلّها، خوف لا مبرر له، زرعته في نفسي أقوال صدّقتها لسذاجتي.

مسرحيّتي

بدأت الاستعدادات للاحتفال بعيد العرش، كم كان التلاميذ يعشقونها، بفضلها يتخلّصون من رتابة الدروس، من عذاب الحفظ، وكآبة حجرة الدرس.

سنحفظ أناشيد جديدة، وسيختارون منّا بعض المحظوظين الّذين سيمثّلون المدرسة أمام شخصيات المدينة في الاحتفالات الرسمية.

الباب مفتوح في وجه الجميع، شرط واحد إن توفّر فيك تمّ اختيارك، يكفي أن تكون من المتفوقين.

ما لم نستطع التخلّص منه هو سادية بعض المعلّمين، فحتى في تدريبهم لنا، وفي عملهم معنا لإتقان الاستعراض أو رسم لوحة فنية بأجسامنا الصغيرة، كانوا قساة متسلّطين، سب وصفع وركل ولطم، لا يعرفون كيف يفرحون أما أن يسعدوا الآخرين فهو مستحيل عليهم.

كنت متحمسا جدّا، طلبت من أختي أن تلقّنني الأناشيد الّتي تحفظها، هي الّتي تدرس بالمتوسط الأول، أو القسم الرابع، إنّها معلّمتي الأولى، وما بخلت علي: "إيه أمة المغرب"، "أنا المغرب"، "مغربنا حبيبنا"، "صوت الحسن" ... كلّها أناشيد حفظتها عن ظهر قلب استعدادا لليوم المشهود.

" البرد قارس

في شهر مارس

والكلب حارس

على المدارس.."

كنّا نغنّي في طريقنا إلى المدرسة، وصلنا كعادتنا قبل الوقت، تجمعنا في زاوية قرب أحد الدّكاكين المغلقة، أخرج السالك علبة عود الثقاب، أشعلنا النار في الأوراق الّتي كانت متناثرة في الشارع طلبا لدفء مفقود، من حسن حظّنا وجود علب الكرتون الفارغة الّتي تخلّص منها تجّار الحي. كانت النار حارقة والدخان كثيفا، امتصته أجسادنا وملابسنا.

دقّ الجرس، واصطففنا في الساحة أمام حجرات الدرس. أدخلَنا الحارس إليها طالبا منّا التزام الصمت.

يبدو أنّ المديرة دعت المعلّمين لاجتماع، كانت القاعة تعبق برائحة الدخان. بعد دقائق، دخل المعلّم السي النظيفي حاملا أوراقا، رماها على المكتب، وأخرج من جيبه سيجارة وبدأ ينفث دخانها. يبدو أنّه غاضب! ترى ما الّذي أغضبه؟

طلب منّا فتح كتب القراءة، وكتابة نص " القرد الحلّاق". شيء غريب، فهذا النص سبق وقرأناه، وأنجزنا تمّارينه ...

ليس من عادة معلّمنا تكليفنا بكتابة نصوص القراءة لا في البيت ولا في المدرسة. لم نناقشه، وبدأنا عملنا، في الحين، فيما توجه هو نحو الباب، واتّكأ عليه وبدأ يدخّن بشراهة، سيجارة ثانية فثالثة، ما باله؟! اعتدل في وقفته، حيته معلّمة المستوى الثاني ثمّ دخلت، وبدأت بالحديث مباشرة:

- ليلتحق بي قرب السبورة كل من سمع اسمه:

أنصتنا بكل جوارحنا.

- حسناء، مارية، منى، يوسف...

لا يعقل!! هناك خطأ ما!!؟؟ يوسف ليس من المتفوقين، كما أنّه لا يستطيع نطق حرفي الكاف والراء، كيف سيشارك؟؟ لماذا اختاروه؟؟؟ أ لأنّه ابن مدير البنك؟؟

- اتركواْ محافظكم هنا ورافقوني.

غادرت المعلّمة يتبعها "المتفوقون"، وتركتني غارقا في بحر من التساؤلات:

لماذا لم أسمع اسمي؟؟!! فقد حصلت على الرتبة الثانية في اختبارات الدورة الأولى: ربّما شكلي: فأنا نحيف وقصير؟ لا إنّها ملابسي الفضفاضة الّتي كان يلبسها أخي؟ لا ليست ملابسي بل لأنّني ابن خباز؟ ...

قطع علي المعلّم شرودي حين سمعته يطلب مني قراءة الفقرة الأولى. يا إلهي!!! سنقرأ النص مرة أخرى!!!

كان صوتي صاخبا يتردّد صداه داخل جمجمتي بسبب الصدمة، لكن المعلّم طلب مني أن أرفعه، توجه نحوي، كنت خائفا، فليس من عادته الاقتراب من التلاميذ أثناء القراءة إلّا ليعاقب المقصر منهم، فكنت أنظر إلى الكتاب لأقرأ تارة، وأرفع رأسي تارة أخرى لأتتبع حركاته كي لا يفاجئني بصفعة كما فعل في المرة السابقة، دنا مني وأمسك أذني بلطف وقال:

- هل هذا هو الزر؟ أ أديره يمينا أم يسارا كي يرتفع الصوت؟؟

ضحك زملائي، في حين علت حمرة الخجل وجهي، وانطلق صوتي صاخبا أكثر فأكثر، دون جدوى، إنّه يكرر طلبه، ترى هل أصبح أصم؟ أم يريد إحراجي؟

أطلق أذني، ومرر يده على قفاي ثمّ على ظهري قبل أن يربت على كتفي، نظرت إليه، فوجدته يبتسم، تعجبت من ذلك.

طلب مني أن أتوقّف، وأرسلني لأحضر الطباشير من الإدارة، ما الّذي أصابه، قطع الطباشير تملأ سطح مكتبه، ألم يرها؟ ... لا يهمني، هذه فرصتي لأستنشق هواء نقيا.

في طريقي مررت قرب القاعة الّتي يتدربون فيها، توقّفت أتلصص، فرأيت الفتيات يرتدين زيا أندلسيا بلوني مدينة الشاون المغربية، ترقصن على أنغام الموشّحات التي صرت أكرهها بسبب هذه المعلّمة.

ولمحت يوسف ابن مدير البنك، ذلك الطفل الّذي لا زال يجد صعوبة في الحديث، والّذي لم أر قطّ منخريه، لأن المخاط يغطّيهما طوال السنة، يصيح بلغة عربية ركيكة ونبرة لا تمتّ للشخصية الّتي يمثّلها بشيء، فيتدخّل المعلّم ويصحح أخطاءه.

خفت أن يراني فركضت إلى الإدارة، وحملت طبشورين إلى معلّمي الّذي طلب مني وضعهما في العلبة الموجودة على المكتب، والّتي كانت ممتلئة عن آخرها، احترت في أمره، لكنّه انتشلني من حيرتي بأن طلب مني أن أقف قرب السبورة، وقال:

- سنمثّل أنا وأنت! قالها وهو ينظر إلي، وما كنت لأرفض.

أضاف:

- أنا القرد سعدان وأنت القرد سوسان، فأنت الزبون وأنا الحلّاق.

مثّلنا الدور كما وصفه نص القراءة، لكن لحظة ركلي له، كانت صعبة، فقد استحييت أن أركل معلّمي، لكنّه أصر على ذلك، فركلته ركلة خفيفة.

تعالت القهقهات، وكانت ضحكته أعلى وأوضح. ثمّ أمرني أن أتوقّف، لأنه سيمثّل دور القراد، وسأكون قرده، موضّحا أن النص يتحدّث عن القرد، وليس الغوريلّا، فضحكنا مرة أخرى. وانتقلنا للدور الجديد:

كان كمن يمسك حبلا ويسحبني، وكنت أتبع أوامره: مرة أقفز وأخرى أتشقلب غير آبه لأتربة الأرضية الّتي التصقت بثيابي، أعجبتني الفكرة وانسجمت لدرجة أنّني كنت أقوم بحركات القرد، قوست ظهري، وجعلت يدي القصيرتين تلامسان قدمي، وصرت أتمّايل كقرد سرك، وفي الختام طلب مني أن أرقص وهو يطبل على الطاولة الأولى، فتمايلت بجسد القرد الّذي كنته، وحينها فقط أدركت

لماذا كان أبي يلقّبني بالقرد: سرعة حركاتي وكثرة نشاطي وقدرتي على التسلق.

خلقنا جوا مرحا، أزاح عن قلبي الغمة، واستطعنا أن نُدخل قليلا من البهجة إلى قلوب زملائي الحاضرين.

توقّف المعلّم قائلا: هذا حفلنا، وهذه مسرحيتنا، لا تهتموا بالآخرين، يقصد المعلّمة والمختارين الّذين رافقوها للتدريبات.

عرفت سبب غضب معلّمي، وكان هذا كافيا ليزيح عن صدري إحساسي بالغبن. ومن هنا بدأ تحفّظي من الارتباط بأبناء من ليسوا فقراء مثلي، وصرت أقرب منهم قدر المستطاع، كما فقدت مبررا يدفعني للاجتهاد والتفوق في دراستي.

اليتيمة

إ نه يوم السبت، موعد حصة الاستراحة، كنّا نتساءل عن موضوع اليوم، عن المفاجأة الّتي يعدّها معلّمنا.

بعد إنجاز تمارين الرياضيات وتصحيحها، وهي الّتي تسبق حصة الرسم والأعمال اليدوية كما سمّاها معلّمنا، وبطريقة آلية أخرجنا دفاتر الرسم، وانتظرنا أن ينهي مسح السبورة الممتلئة عن آخرها.

وضع الممسحة في مكانها، وبدأ يخلع الوزرة البيضاء، وطلب منّا أن نجمع أدواتنا ووضعها في محفظاتنا، والوقوف في صفّ واحد بجانب السبورة لأنّنا سنخرج!

صاح بعض التلاميذ فرحا معتقدين أنّنا سنغادر إلى بيوتنا، فقاموا وهم يحملون محفظاتهم معهم، فالمعلم لا يخلع وزرته إلّا إيذانا بموعد الخروج.

ورغم أنّني كنت في الطاولة الأولى، فقد تسمرت مكاني، وتملّكتني الحيرة: هل أحمل محفظتي أم أتركها؟ لا زال بداخلي ذرة من الخوف، لكن ضحكة المعلم وضّحت كل شيء، فقمت مسرعا تاركا محفظتي في قمطر الطاولة.

- سنخرج إلى الساحة. اتركوا محفظاتكم هنا!

فهمنا أنّه يعدّ مفاجأة أخرى.

خرجنا بنظام، فأخذَنا إلى المكان المقابل لقاعة الدرس، بجانب بيت المدير، تناول حجرا، ورسم مستطيلا كبيرا على الأرض، وأمرنا ألّا نخرج منه.

لأول مرة أرى معلما يركض، كانت الدهشة تعلو وجوهنا! بابتسامته المعهودة طلب منّا أن نتبعه، ركضنا خلفه، البعض اعتقد أنّه سباق فبدأ يتجاوز من هم أمامه وقبل أن تدبّ الفوضى، صاح بنا:

- ليس هذا سباق، إنه إحماء، سنهيئ أجسادنا للقيام بتمارين رياضية. فلا داعي للفوضى.

تعالت صيحاتنا ونحن نركض، ومعلّمنا يطلب منّا الجري في هدوء، وهو شيء مستحيل، وبدأ الغبار يتطاير تدفعه الريح القوية تارة نحو وجوهنا وطورا نحو قاعات الدرس.

بعض التلاميذ يسترقون النظر من نوافذ الأقسام، فتدخّل المعلّمون وحجبوا عنهم الرؤية بإغلاق الأبواب، وتمرير الستائر إن وجدت، ومعاقبة المتطفلين الّذين فضّلوا متابعة ما يجري في الساحة بدل الانتباه إلى الشروحات.

توقّف معلّمنا، وطلب منّا أن نكون دائرة حوله ليصبح هو مركزها، وذلك بأن نمسك بأيدي من هم بجانبنا، وأن نتقدم كلّنا نحوه، ثمّ نرجع للخلف إلى أن تتمدد أيدينا دون أن نقطع الدائرة، قمنا بتكرار العملية ونحن نردّد:

- افتحي يا وردة!
- أغلقي يا وردة!

بعد ذلك، أنجزنا حركات بناءً على طلبه، لكلّ حركة رقم، هكذا شرحها:

واحد ارفعوا أيديكم بشكل عمودي فوق رؤوسكم.

اثنان أنزلوها أمام صدوركم وحافظوا عليها ممدودة.

ثلاثة تخيلوا أنكم تدفعون جدارين يريدان أن ينطبقا عليكم واحد عن يمينكم والآخر عن يساركم.

أربعة اضربوا أفخاذكم بقوة.

وبدأ يعدّ: واحد! اثنان! ثلاثة! أربعة!

كنّا ننتظر الرقم أربعة، نسمعه رغم قوة الرياح، وكان صوت ضربنا لأفخاذنا يزلزل المكان، ويشعرنا أنّنا جسم واحد.

بدأ التشويق، حين أخبرنا أنّنا سنلعب لعبة الحركات، في البداية ذكر كان يعدّ بالترتيب: واحد اثنان ثلاثة أربعة، ثمّ غيّر الترتيب: واحد، ثلاثة، واحد، اثنان، أربعة، من أخطأ سيجلس ويغادر اللعبة، علينا التركيز.

جلس الأول، والثاني ثمّ اثنان آخران، حاولت أن أركّز لكن ذرات التراب الّتي تصفعني بها الرياح، ودخولها إلى عيني جعلاني أفقد تركيزي وألتحق بالجالسين.

صارت اللعبة صراعا بين الذكور والإناث، نحن نشجّع محمد والإناث يشجعن مارية، فاز محمد، وصفّقنا له.

ردّدنا نشيد الحلزون، ثمّ عدنا إلى حجرة الدرس، حملنا محفظاتنا، وانتظرنا أن نسمع الجرس.

خرجنا من المدرسة، وكنّا كمن كان مدفونا واستطاع الخروج من قبره، حبات التراب تملأ عيوننا، كنت أحس بها تتكسر تحت أسناني. كم أكره هذه المدينة حين يكون جوها هكذا! تحتاج العودة إلى البيت قوة وطاقة، وكنت أقاوم الرياح وهي تدفعني إلى الخلف، ترغب في اختطافي بعيدا.

يوم الاثنين بعد عطلة نهاية الأسبوع، أخبرنا معلّمنا أن تلك كانت آخر حصة للتربية البدنية، فقد اشتكى المعلّمون، كما تقدّم أيضا بعض الآباء بشكواهم للإدارة، ووعدنا أنّه سيحرص على أن نلعب لعبة الحركات داخل حجرة الدرس كلّما سمحت الفرصة.

وكانت تلك أول وآخر حصة للرياضة في المرحلة الابتدائية كلّها.

عادل

- اجمعوا أدواتكم! وانصرفوا بنظام!!

جمعنا أدواتنا، وانتظمنا في صفّ مثنى مثنى أمام السبّورة، وانتظرنا إشارة المعلّم، أفضّل أن أقف في آخر الطابور، ممّا يتيح لي فرصة مراقبة الآخرين، وتجنّب الاحتكاك أو التدافع.

خرجنا من حجرة الدرس، واتّجهنا نحو باب المدرسة، عادل يمسك يدي ويسحبني بقوة، فلا أجاريه، وأسير بخطى وئيدة.

غادرنا المدرسة، توقّعت أن يودّعني صديقي، كما هي عادته، ويطلق يدي، كي أسابق الريح باتّجاه المنزل، فالجوع يمزّق أحشائي، لكنّه ما فعل، وسحبني باتّجاه سيارة الجيب العسكريّة الّتي تنتظره.

جميل!! سيوصلني ويريحني من عناء الركض، صعدنا، وجلست على الكرسي الخلفي وحيدا، سألني الجندي:

- أين تسكن؟

أجبته، فانطلق بنا نحو البيت الّذي انتقلنا إليه حديثا. عند وصولنا ودّعت عادلا، وأردت النزول، لكنّه أمسك بي وطلب مني الجلوس، ففعلت.

غادر السائق السيارة، وطرق باب بيتنا، فتحته أختي، حدّثها، فنادت أمي، الّتي رأيتها تهز رأسها موافقة على كلامه، يبدو أنّني ضيف عادل.

وصلنا حي الضباط، وكما يدلّ على ذلك اسمه فسكّانه من ضباط الجيش وأسرهم، ووالد عادل قائد.

توقّفت السيارة أمام بيت من البيوت المتشابهة، ترجلنا، فأسرع عادل يسحبني صائحا:

- ها هو لقد أحضرته.

هذا المكان لا يشبه البيوت الّتي دخلتها من قبل، أنّه قريب ممّا أراه في الأفلام الأجنبية على التلفاز.

قبلت يد والده بصعوبة فقد تمّسكت بها وحاول أن يسحبها، لكن خوفه من إحراجي جعله يتراجع.

والدته!! يا إلهي!! ما هذا؟؟؟ لأول مرة أرى أما تلبس تنّورة!! انحنت وقبلتني مرحبة. تحسست مكان القبلة، فنحن الصغار من نقبل أيدي ورؤوس الكبار، أما هنا فالأمر معكوس.

وضعت محفظتي في المكان الّذي اقترحه عادل، غسلنا أيدينا، واتّجهنا إلى غرفة الطعام، الغذاء جاهز. الكتب في كل مكان!

كأي طفل من عائلة فقيرة اعتدت الجلوس على الأرض، هنا علي أن أجلس على كرسي، هه.. أجد صعوبة في استعمال الملعقة فما بالك بالشوكة والسكين!! وهذه الأصناف المختلفة لم أتعرف منها سوى السلطة، عالم جديد مبهر. اللغة الفرنسية طاغية على أحاديثهم، فقط أنا وعادل من كنّا نتكلم العربية، ولولا كلمات الترحيب لاعتقدت أنّهم أجانب.

تناولنا غذاءنا، ثمّ اتّجهنا إلى غرفة صديقي، المكان مرتّب بعناية، كل شيء في مكانه، سرير مريح، ومكتب، وخزانة، وتلفاز.

جلست منبهرا بما أرى، أما عادل فقد أخرج بعض اللّعب من الخزانة ووضعها أمامي، ثمّ طلب مني أن أختار واحدة كهدية، اخترت سيارة حمراء وشكرته، سحب رفًّا من رفوف المكتب، وأخرج بسكويتا وعلبة شكلاطة، ذلك النوع المخصص للقوات المسلّحة الملكية، أعطاني حصتي قائلا:

- سنتناولها أثناء الاستراحة.

هززت رأسي كالأبله، غير مصدّق لما يحدث. حيّرتني هذه الأسرة بتعاملها.

نادانا والد عادل فالتحقنا به، كان يجلس على وثاب وثير، وبيده فنجان قهوة، وضعه على الطاولة الّتي أمامه فور رؤيتنا.

أخبرنا أنّنا سننطلق قبل الوقت المحدّد لأنّ السائق سيوصل أختي عادل إلى الثانوية، ثمّ خاطبني:

- أخبرني عادل أنّك من الأوائل في القسم، وأنّك صديقه، فهو لا يكفّ عن ذكرك، لهذا طلبت منه أن يدعوك لتناول الغذاء معنا تكريما لك، وافتخارا بما تقوم به، اهتم بدراستك، وإن احتجت أي شيء لا تتردّد فقط أخبر عادلا.

مطأطأ الرأس، أنظر إلى قدميه، كنت أنصت. كلماته حركت شعورا غريبا بداخلي، لم أعهده من قبل. أردت أن أقبّل يده فسحبها هذه المرة قبل أن أمسكها.

أمّا والدته، فقد انحنت علي وضمتني، ثمّ طبعت قبلة وداع على خدي.

حملنا محفظتينا، واتّجهنا إلى سيارة اللاند روفر هذه المرة، ركبنا أنا وعادل في الخلف، فيما ركبت أختاه قرب السائق الّذي انطلق بنا نحو الثانوية.

ترى ما الثانوية؟ لم أسمع بها من قبل، وانتظرت لأرى بأم عيني.

عدد كبير من الشبان والشابات يحملون كتبا ودفاتر، قرأت المكتوب على اللافتة "ثانوية الحسن الثاني"، جلست في مكاني أحملق في منظر غريب علي، صخبهم يسمع من بعيد. ترجلت أختا عادل، ودّعتانا، وذابتا في كومة من طلبة الثانوية.

انتقل عادل إلى المكان قرب السائق، فيما تحولت إلى الوسط ممسكا مقعديهما أرقب الطريق، وأسمح لعادل أن يرى وجهي وهو يحدّثني.

أخذتنا السيارة إلى مدرستنا، ثمّ عادت بعد انتهاء حصة المساء، وصلت بيتنا يسحبني السائق من يدي. طرق الباب، أطلّت والدتي فبادرها:

- ها هو ابنكم، القائد يشكركم.

وأفلت يدي. لوحت لعادل، وقبلت يد والدتي وكلّي فرح، كنت متلهفا لأحكي لهم كل ما حدث، ولألعب بسيارتي الجديدة.

حيلة

عندما تحل العطلة تتغير حياتي رأسا على عقب، باستثناء زملائي من الأسر الفقيرة الّذين لا يبرحون مكانهم ويقضون الصيف الحار في المدينة مثلي، تنقسم البقية إلى نوعين:

أبناء المنطقة الّذين ولد آباؤهم وأجدادهم هنا، ولا زالت تغلب عليهم طبائع البدو، فتراهم يربون الماعز على أسطح المنازل، أو في أحواش بنوها خصيصا لهذا الغرض، في العطل يحملون رحلهم وخيامهم، ويغادرون إلى الصحراء، تغييرا للأجواء، وإحياء لتقاليد الأجداد.

وأبناء الوافدين الّذين أجبرتهم وظائف وأعمال آبائهم على الانتقال إلى العيون، يشدّون الرحال إلى مدنهم الأصلية صلة للرحم، وهروبا من هذه الصحراء القاحلة، وفي أسوإ الأحوال يخيمون في شواطئ المحيط الأطلسي الّتي لا تبعد عن المدينة إلّا بخمس وعشرين كيلومترا.

ليس من حقّي التمتع بالعطلة، لم يكن ذلك بسبب فقري، ولكن بسبب قناعة مفادها أنّ الطفل إذا لم يشْغَل يجلب المشاكل لنفسه ولأسرته، من هنا كان قرار والدي أن نلتحق؛ أنا وأخي؛ بالكتّاب القرآني، شأننا شأن ثلّة من أبناء الحي.

كنّا نحسد الفتيات على هذا الامتياز، من الفجر ونحن رهائن الفقيه، باستثناء نصف ساعة لتناول وجبة الغذاء بعد صلاة الظهر، لا يطلق سراحنا إلّا عند مغرب الشمس، كنّا ممنوعين من كل شيء، وأرجلنا تورمت بسبب الحصير الّذي نجلس عليه، أما ظهورنا فأصبحت مقوسة، وألم فظيع يمزقها، الكبار يستولون على الأماكن القريبة من جدران الحجرة الضيقة، فيستندون عليها، ونبقى نحن الصغار محاصرين في الوسط، ونادرا ما كان أخي يحجز لي مكانا قربه.

كيف للفقيه أن يحس بنا وهو جالس على فراش وثير متّكئا على وسادة ناعمة؟ في يده سبحة بيضاء كالّتي أهدتها جارتنا لوالدتي فور عودتها من الحج. كان طيبا في الثلاثة أيام الأولى، بل منحنا؛ أنا وأخي؛ شرف مشاركته وجبة الإفطار، سمعت الأطفال حينها يتهامسون ساخرين:

- إنّه شهر العسل!! فعرفت على الفور أي نوع من الرجال هو.

بعد انقضائها تحول إلى شخص فظّ غليظ القلب، يضرب ويشتم لأتفه الأسباب.

المدرسة أرحم من هذا المعتقل. كنّا ملزمين بدفع درهم كل أربعاء وآخر كل أحد، إضافة إلى قالب سكّر وعلبة شاي وعلبة شمع وقطعة صابون أول كل شهر أو ما يعادل ثمّنها نقدا.

اليوم الأربعاء، يوم دفع الإتاوة، أيقظنا والدي لصلاة الفجر، مدّ عشرين سنتيما لكل واحد منّا لنعطيهما للفقيه.

الجو بارد، بدأت أسناني تصطكّ، وبشرتي صارت مثل جلد عصفور منتوف الريش، ضباب وظلام دامس في الخارج، سرت أحثّ الخطى لألحق بوالدي.

دلفنا المسجد، كان دافئا، وقفت أنتظر والدي الّذي احتار أين يصلّي.

وقع اختياره على الجانب الأيمن، سار إلى أن وصل الصفّ الأول، نتبعه أنا وأخي، فإذا بشيخ يقوم نحوي، ظننته سيشجعني جزاء استيقاظي في هذا الوقت، وتحملي عناء الحضور إلى المسجد، أو أنّه سيخرج قطع الحلوى والمكسرات من قب جلبابه، ويناولني إياها.

هكذا عودنا كبار السن، يجودون علينا ولو بكلمة طيبة أو دعاء صالح، لكنّه نهرني مدّعيا أن سني لا تسمح لي بالصلاة في الصفّ الأول، نظرت إلى والدي مستنجدا، فرأيت الغضب باديا على محياه،

فما كان مني إلّا أن التحقت بأخي وطفلين آخرين كانا خلف المصلّين القلائل.

دخل الإمام، وهو نفسه الفقيه الّذي يعلّمنا القرآن في الكتّاب، صلّى بنا، ثمّ جلسنا نتلو الحزب الراتب، أنهينا تلاوتنا، فخرجنا وعند الباب افترقنا: الكبار إلى بيوتهم وأعمالهم، ونحن نرافق الإمام إلى بيته كي نتعلّم القرآن.

عندما سألني إن كنت أحفظ شيئا من القرآن الكريم، كذبت عليه وأخبرته أنّني أحفظ ما تحفظه العجائز، سورة الفاتحة وقصار السور، رغم أنّني أحفظ الحزب الستّين كاملا.

لذلك قرر أنّ علي أن أحفظ الحزب الستّين، سورة الأعلى أحفظها قبل دخولي للمدرسة، كم أحب أن أمثّل دور الطفل البليد الجاهل، ويصدّقني الكبار!

قبّلنا يد الفقيه، وأخذنا أماكننا. تسابق الأطفال لتسليم المال، فيما حجوت مكانا جيدا أستند إلى الحائط، ونسيت أن أسلم المال للفقيه.

كنت شاردا ألهو بالقطعة النحاسية، أضعها في أعلى اللوح وأدعها تنزلق لتسقط على بطني صادحا بسورة الأعلى، رآني عبد الله فصاح بالفقيه:

- سيدي! علي لم يسلمك المال، ويرغب في الاحتفاظ به لشراء الحلوى عندما نغادر.

غضب الفقيه وناداني. كم أكره الوشاة! حملت لوحي وجلست قبالته، ركبتي إلى ركبتيه، وضع اللوح أمامه، واستظهرت السورة كاملة، بناء على طلبه، لم أخطئ ولم أتلعثم.

وضع اللوح جانبا، كنت أنتظر كلمات المديح، وقطعة الصلصال لأغسل لوحي، وأهيئه لكتابة سورة الغاشية، على الأقل سترتاح رجلاي اللّتان كانتا مطويتان منذ دخولنا، لكنه سألني بصوت هادئ وحنون:

- أين المال؟
- ها هو سيدي، وناولته مالي، أو بالأحرى ماله.
- كنت تنوي سرقتي أيها اللعين؟؟؟

قال جملته ويده تمّسكني من قفاي، وتدفع رأسي للأسفل، فأحكم قبضته عليه بساقيه، ثم بدأ يجلدني بسبحته.

في البداية أحسست بالألم وصرخت، بل حاولت الإفلات دون جدوى، لكن توالي الضربات ولّد لدي الإحساس بأنّه لن يتوقّف، ما دفعني للاستسلام والصمت، شعرت بظهري باردا كقطعة ثلج، كأنّه ليس جزءا مني.

أطلق رأسي، أردت أن أعتدل في جلستي، فدفعني بضربة من رجله على صدري، تدحرجت وارتطم رأسي بالأرض.

ضحك الحاضرون، فيما كتمت دموعي وجميع مشاعري، عدت إلى مكاني، نظرت إلى عبد الله، وأقسمت بيني وبين نفسي أن أجد حيلة تخلّصني من الطاغية نهائيا.

أدّينا صلاة الظهر في المسجد خلف الجلّاد، ثمّ توجّهنا إلى البيت، وفي الطريق وجدت أن قميصي قد التصق بظهري.

أدخلت يدي برفق لأفصلهما، ورغم ذلك سالت الدماء من جديد، يجب ألّا يعلم أبي، تسلّلت إلى الغرفة غيّرت القميص، وخبأته في انتظار اللحظة المناسبة للتخلّص منه.

تناولنا غذاءنا، وعدنا إلى السجن. خلاصي يعتمد على إقناع والدي، لذلك بدأت بدراسته.

اليوم الأخير من الشهر، غدا يوم الدفع، طلبت من أخي ألّا يخبر والدي هذه الليلة، وأن ينتظر إلى الغد، سألني عن السبب، لم أجبه ووعدته أنّه سيعلم كل شيء في وقته.

وفي الغد، ونحن عائدان إلى البيت ظُهراً، سألت أخي:

- هل تودّ أن تتخلّص من هذا العذاب؟؟
- أنت تحلم!
- فقط أخبرني وأجب عن سؤالي.
- طبعا أريد ذلك.
- إن نجحت خطتي فإنّنا لن نعود إلى الكتّاب بدءا من هذا المساء.
- مستحيل!!!
- يكفي فقط أن تصمت وتؤكّد أقوالي لأبي إن طلب منك ذلك.
- حسنا، سأفعل.

انتظرت والدي إلى أن هم بالخروج، فأخبرته كاذبا أنّ الفقيه رفع واجبات تعليمنا للضّعف، وإن كان نقدا فيصل إلى خمسين درهما.

والدي مستعجل، وتفكيره منصب على عمله الّذي لا يريد أن يتأخّر عنه، نظر إلى أخي الّذي هزّ رأسه تأكيدا لأقوالي، الوقت

يمضي ويجب أن يقرر، لم أشأ أن أترك له فرصة للتفكير، فرجوته أن يمنحنا المال، وغمزت أخي فكرر ما قولي.

والدي اقتنع أنّ الإمام طماع، وهو يكره هذه الصفة، فما كان منه إلّا أن أمرنا بالجلوس في البيت، ومنذ تلك اللحظة تخلّصنا من الكتاتيب القرآنية، وعندما غادر أبي سحبني أخي إلى الغرفة الفارغة، حضنني وهو يهمس في أذني:

- لم أكن أعرف أنّني شقيق إبليس.

دفعته للخلف معاتبا:

- جزاء سنمار، بدل أن تشكرني ها أنت ذا تسبني.

السنة الثالثة

قرار

اعتدنا أن نحضر إلى المدرسة حاملين قلما وورقة فقط بداية كل سنة دراسية جديدة، نتعرف معلّمينا، نسجل لوازم الدراسة كي نسلّمها لأسرنا الّتي تشتريها لنا، غالبية الكتب نستعيرها من الجيران أو أفراد العائلة.

وقفت في الصفّ مع زملائي، أدخلتنا معلّمتنا، وجلسنا في أماكننا. اخترت طاولة في الخلف مع الفاشلين، فقد أصبحت مقتنعا أن لا فائدة من التميز، وأنه أحيانا يستحسن أن تبقى في الظل.

أخرجت المعلّمة لائحة، وبدأتْ تنادينا، وهي تحملق في وجوهنا محاولة ربط أسمائنا بصورنا، كي يسهل عليها تذكّر أسمائنا.

نهضتْ من مكانها وملأت جزءا من السبورة بلائحة اللوازم المدرسية، فشرعنا في نقلها إلى أوراقنا. سكون تام، الكل منهمك، لا تُسمع إلّا طقطقات الأقلام على الطاولات حين نضع النقط على الحروف.

فجأة!! دخل المدير الجديد يرافقه شخص غريب، تحدّثا مع المعلّمة، ثمّ غادرا على عجل، كنّا منشغلين بالكتابة. فإذا بها تأمرنا بالتوقّف والانتباه، لأنّ ما ستقوله هام ومصيري بالنسبة للبعض.

أشارت إلى التلاميذ الجالسين في الخلف، وكنت منهم، أمرتنا بالقيام والاستعداد لمغادرة حجرة الدرس، أطعنا أمرها والحيرة تملؤنا... ما الّذي فعلناه؟؟ بالكاد تعرفنا!! لكنّها قطعت علي تساؤلاتي حين قالت موضّحة:

- لقد تمّ بناء مدرسة جديدة: مدرسة الدشيرة، وهي ليست بعيدة من هنا، وقد تمّ اختيار تلاميذ من المدارس الثلاث الموجودة في الحي لنقلهم إليها، ليكملوا دراستهم بها، والشخص الّذي حضر مع المدير سيأخذكم إليها فورا فهو يعمل هناك.

نزل علي الخبر كالصاعقة، لم أستوعبه. وتبيّن لي أنّها حاولت التخلّص من الفاشلين، لذلك اختارت جميع الجالسين في الخلف.

لم تنس بعض التلاميذ الّذين نخر الفقر أجسادهم، ودعتهم للوقوف إلى جانبنا بثيابهم البالية المزركشة بالرقع، وأجسامهم النحيلة المتّسخة، نحن الآن منبوذون من معلّمتنا، وهذا زرع في قلبي بذرة كرهها، وكره اللغة الفرنسية.

رغم أنّ القرار لم يعجبني، فقد امتثلت له، واستعددت للمغادرة، وأنا على يقين أنّني سأعود، فأسرتي لن تتقبل أن يدرس أبناؤها في مدارس مختلفة.

بكى بعض الواقفين، فيما احتج آخرون، لكن ذلك لم يدفع المعلّمة لتغيير قرارها، بل طلبت منّا أن نخرج لنسمح للجالسين برؤية ما هو مكتوب على السبورة.

دائما ما أجد من يدافع عني، حين لا أرغب في ذلك أو أعجز عنه، لا أذكر من أخبرها أنّ لي أخوين يدرسان بالمستوى الخامس، لكنّه أراحني من عناء خوض تجربة جديدة.

- هل هذا صحيح؟؟
- نعم أستاذة.
- عد إلى مكانك!

عدت للجلوس، وهذه المرة تجنّبت الطاولات الخلفية، لأنّ الطاولات الأخرى فارغة، جلست في الطاولة الرابعة في الصفّ الثالث، أبعد واحدة عن السبورة.

وقبل أن أكمل نقل اللائحة، رأيت زملاءنا يغادرون القسم، ويتجمعون مع غيرهم من تلاميذ الأقسام الأخرى في الساحة، ثمّ

تحركوا جميعهم نحو الخارج، يسبقهم الرجل الّذي حضر مع المدير، وبدؤوا يختفون فور تجاوزهم باب المدرسة المقابل لحجرة الدرس.

أصبح عددنا قليلا، ولكن ذلك لن يدوم طويلا، فقد كانت الأسرة الصغيرة في هذه المدينة تضم خمسة أطفال على الأقل، وذلك راجع إلى أنّ غالبية الوافدين على هذه المدينة؛ هم في الأصل؛ من سكّان القرى والبوادي المغربية، كما أنّ أبناء المنطقة لم يألفوا الاستقرار بعد، وتغلب عليهم عقلية الرحل بطباعهم وعاداتهم وتقاليدهم.

الدليل

ا لسور الّذي يفصلنا عن الشارع لا يحجب عنّا رؤية المارين على الرصيف، وخصوصا الكبار منهم، لا توجد ملاعب للرياضة، إذ يبدو أنها كانت مخصصة للتعليم الأولي في عهد الاستعمار الإسباني.

أما المدارس الأخرى الّتي توجد بنفس الحي، مدرسة يعقوب المنصور، ومدرسة الساقية الحمراء، ومدرسة الدشيرة، فقد كانت أكبر وأجمل من مدرستنا.

مدرسة يعقوب المنصور من مخلّفات الاستعمار الإسباني أيضا، لا تبعد عن مدرستنا إلّا بنصف كيلومتر.

تتكون من طابق أرضي للتلاميذ الصغار الّذين يدرسون في المستويات الدنيا، وطابق علوي لتلاميذ السنتين الرابعة والخامسة، ملعب للرياضة، وإدارتها تضم ثلاثة مكاتب، وقاعة للمعلّمين، إضافة إلى مسكن المدير، وما يميز هذه المدرسة توفّرها على مطعم كبير، حيث تقدّم وجبات الإفطار لتلاميذ المدارس الأربعة، خلال فترة الاستراحة.

أخبرتنا أستاذتنا ونحن نستعدّ للخروج، أنّ الإطعام المدرسي سينطلق غدا، وأنّ على من يرغب في وجبة خفيفة التوجه إلى المدرسة

المجاورة، أثناء خروجه على الساعة العاشرة صباحا، أو قبل دخوله على الساعة العاشرة والربع، كما أنّه يجب علينا أن نحترم التوقيت، ولا نتأخر عن الدروس.

كانت لدى العديد من التلاميذ فكرة خاطئة عن المطعم، فقد حذّرني الكبار من الذهاب إليه تفاديا لسرقتي من طرف المشرفين عليه، وتسليمي لملجإ أو أسرة غنية تتكفّل بي. خفت كثيرا من المطعم، من فكرة أن يتم اجتثاثي من جذوري.

في اليوم الموالي، وبعد أن انتهت الحصّة الصباحيّة، كان الجميع يتسابقون لمغادرة حجرة الدرس والمدرسة، في حين كنت أتحقّق من أنّني جمعت كل أدواتي في مقلمتي، وأتفقّد محفظتي لأتأكّد أنّ كراساتي ودفاتري موجودة فيها، قبل أن أحملها بتثاقل، ومعلّمتي تمسك مقبض الباب وتحثّني على الإسراع.

خرجت من القاعة وأنا أفكّر أي طريق أسلك إلى البيت، أهو الأقصر والأخطر، أم الأطول الآمن، فانتشلني زميلي فؤاد من حيرتي بسؤاله:

- هل ستأتي معي إلى المطعم؟

تسمرت مكاني، وأنا أتخيلهم يختطفونني بعيدا، وأرعبتني فكرة أن تفتقدني والدتي، فسمعته يقول:

- ماذا؟ هل أنت خائف؟
- خائف؟ هه ممّاذا أخاف؟
- إن الطعام لذيذ، أحسن مما تطهوه أمي في البيت.

رافقته يدفعني فضولي ورغبتي في قطع الشكّ باليقين، وبدأت أفكّر في طريقة للهرب إن حاولوا اختطافي.

وصلنا إلى الباب الخلفي لمدرسة يعقوب المنصور، كان مفتوحا، سبقنا بعض التلاميذ، فتبعناهم، ليتبيّن أنّ هذا الباب فتح خصيصا ليسهّل على تلاميذ المدارس المجاورة الوصول إلى المطعم.

كان قاعة فسيحة، لأول مرة أرى هذا العدد الهائل من الطاولات والكراسي والأطفال مجتمعين في مكان واحد، تحول خوفي إلى انبهار، كنّا حوالي مائة طفل.

نسيت فؤادا، وسرت نحو مكان فارغ قرب الباب، تسلّقت الكرسي، وجلست واضعا كلتا يدي متمسكا بمرفقي بحافة الطاولة الضخمة، ومحفظتي الثقيلة تسحبني نحو الخلف والأسفل، فكّرت أن

أُضعها خلفي أو على الأرض، لكنّني أعرف أنّ الأطفال لا أمان لهم، قد يسرقها أحدهم ليجعلني محطّ سخرية.

طردت الفكرة من دماغي، وقاومت ضغطها بتأمل وجوه الأطفال المتحلّقين معي حول الطاولة.

بدأت العدّ، كنّا عشرين تلميذا، عشرة في كل جانب.

فجأة! أحسست بالمحفظة تحلّق عاليا وترفعني، فارتعبت والتفتّ بسرعة لأجد وجهي مدسوسا بين فخذي شخص ما، أرجعته للخلف ورفعته، فرأيت وجها يبتسم لي، بذلة بنّية وربطة عنق بنفس اللون، وقميص ناصع البياض، ونظّارة سوداء تغطّي عينيه:

- لا عليك بني! استرخ! ضع محفظتك على الأرض!

بالكاد سمعت هذه الجملة بسبب الضجيج. اعتدل قائما ليظهر أنّه رشيق وطويل، أو هكذا خيل إلي. كنت أنتظر أن أسمع هذا من أحد، استرخيت، ووضعت محفظتي على الأرض تحت قدمي، فقد أتعبني التشبث بالطاولة.

على أيّ المكان بارد رغم عددنا الكبير والجوّ الحارّ في الخارج، وهذا يعني أنّ القاعة مكيفة. اتجه مدير المدرسة نحو الطباخ، عرفت ذلك من شكله فهو في صراع مع بطنه الّذي يسبقه ويحاول الحفاظ

على توازنه، فيسرع الخطى كي لا يسقط، هكذا تصورته لكن تبيّن أنّ المدير استعجله لأنّ الوقت يمضي، وموعد الحصّة يقترب، واستراحة الأطفال ستنتهي.

أمامي طبق، شوكة عن يساره، وملعقة وكأس كبيرة عن يمينه. مر المساعد فوضع تفّاحة قرب الكأس أمام كل طفل، ثمّ عاد يحمل إبريقا ضخما لم أر مثله من قبل، وبدأ يملأ الكؤوس بالحليب، تبعه رجلان يحملان قدرا ضخما يتصاعد منه البخار يرافقهم الطبّاخ ممسكا مغرفة في يده، فشرع يملأ الأطباق بشعرية مع قطع الدجاج.

عم الصمت المكان، لا يسمع إلّا صوت اصطدام الشوكات بالطبق، كانت مبارزة بيننا وبين الجوع، وبينما نحن نتلذّذ بوجبتنا أحسست بيد تمر قرب أذني وتضع كأس زبادي أمامي قرب الملعقة الصغيرة، لتكتمل نشوتي.

سحبت كمية كبيرة من الهواء المشبع برائحة الدجاج وصلصة الطماطم الحمراء إلى رئتي، تمنّيت أن أحمله معي كدليل، لأقدّمه لمن صدّق الإشاعة، الّتي تحرم أبناء الفقراء من وجبة، قد لا يجدونها في بيوتهم.

خطـرت لي فكـرة، التفـتّ يمينـا ويسـارا، ثمّ نظـرت إلى المـدير فوجدته منهمكا بالحديث إلى مساعديه. وضعت الشوكة، ودسست يدي اليمنى في الطبق، أكملت الأكل بها، ومسحت بها الطبق قبل أن ألعقها، وأشّمها مخاطبا نفسي: "لقد حصلت على الدليل".

التفـتّ لأتأكـد مـن أنّ المـدير لم يـرني، رأيتـه قـد نـزع النظّـارة. فتسـمرت في مكـاني أنتظر اللحظة المناسبة، كنـت أريـد أن أرى عيـني هذا الشخص الطيب، التفت نحوي فالتقت عينانا، فاتّجه نحوي وهو يعيد النظّارة إلى مكانها.

وقف خلفي وأخبرنا أنّه أمامنا دقيقتين كي ننهي وجبتنا، التفتّ نحو الأطفال، وضعت التفاحة والزبادي في جيبي، قفزت من مكاني، انحنيت، وحملت محفظتي.

غادرت القاعة وأنا أتساءل كيف فقد هذا الرجل عينه اليسرى؟

الأوّل

كبرت أختي وبدأت تسقيني من نفس الكأس الّتي سقيت منها أخوي الكبيرين، إن غفلت عن كتبي ودفاتري لحظة ستخربها. الفرق الوحيد هو أنّه أصبح لدينا تلفاز يشغلها عني وعن محفظتي، لكنّه لا يشتغل إلّا على الساعة السادسة مساء، وقت بدء البث، باستثناء يوم الأحد الّذي يبدأ فيه البث على الساعة الرابعة.

وفي المدرسة أصبحت تدرسني معلّمتان، تبدوان على وفاق وانسجام، دائما متأنّقتين، عطر فواح، وملابس عصرية محتشمة، كلتاهما تنبذان العنف، فلا ضرب، ولا شتم، ولا إهانة.

جاءنا مدير جديد، وابنه حسن معي في نفس القسم، أصبحنا صديقين، وقد تمكّنت من دخول بيتهم عدة مرات، وكنت من القلائل الذين دخلوا بيت المدير.

عادل لم يعد يشاركني نفس المقعد، ما بيدنا حيلة، فالمعلّمتان معا اختارتا أن نختلط، كل صبي يجلس قرب صبية، مع استثناءات.

في البداية احتجت الفتيات، بدعوى أنّنا مزعجون، وغير منضبطين، واتّكاليون، وقلن أيضا إنّ تحصيلهن سيتأثّر سلبا، لكن

ذلك لم يغيّر من الأمر شيئا، حتى المدلّلات منهن لم يستطع آباؤهم فعل شيء، فقد كانت حجة المعلّمتين مقنعة.

عند معلّمة العربية كانت بجانبي حسناء، ابنة الربان، والدها قليل الحضور، فكانت متأثّرة على ما يبدو بوالدتها، دائما أنيقة، نادرا ما لا تضع أحمر الشفاه، ولم يكن جلوسها بجانبي مجّانيا، كان لديها ضعف في النحو، وكنت متفوقا فيه، وتقتضي خطّة المعلّمة أن نتعلّم من بعضنا، كوننا أقرانا، سيستفيد كل منّا من قرينه. لم تنجح هذه الخطة مع حسناء، لأنّها كانت مغرورة ومتكبرة، ولم تتقبل أن يعلّمها أحد فما بالك بفتى فقير.

حاولت مرارا تجاذب أطراف الحديث معها، وكانت تصدّني، فقررت ألّا أزعجها بعد ذلك، لكن غيرتها من منى جعلتها تتغير شيئا فشيئا لدرجة أنّها لم تعد تتحرج من الحديث معي إن التقتني في حينا الّذي يضم أشهر المحلّات التجارية، إن زارته رفقة والدتها أو إحدى قريباتها، وأصبح أبناء الحي يسمونني صديق حسناء بسبب كثرة تردّدها على محلّاته.

أما عند معلّمة الفرنسية، فالأمر مختلف تماما، كان بيني وبين جليستي توازن، كنت ضعيفا في اللغة الفرنسية ومتفوقا في الرياضيات، وكانت عكسي تمّاما، كما أنّها كانت مختلفة عن حسناء.

منى ابنة ملازم في الجيش، خجولة وعفوية، قليلة الكلام، لكنّها لا تتردّد في استفساري إن لم تفهم تمّرينا، تشاركني أدواتها، بل كانت أحيانا تهديني قلما أو مسطرة... كعربون شكر، وكنت أقبل على مضض مخافة أن أسبب لها مشاكل مع والدها، أو أن يتم اتهامي بالسرقة، بينما كانت تلح أو تدس هديتها في محفظتي في غفلة مني.

أجمل شيء كانت تقوم به منى هو إهدائي ورقة بيضاء كل يوم، كنت أحب الرسم، وكنت أبحث عما أهديه لها في المقابل، ومن حسن حظّي أنّني حصلت على هدية من جارنا الموظّف مقابل مساعداتي له، مذكّرة بغلاف جلدي، فيها خريطة العالم بأسماء القارات والدول وعواصمها، وباللغتين العربية والفرنسية، وفيها أيضا خريطة المغرب، والمسافة بين مدنه المعروفة، كانت بمثابة كنز لي، ورغم أنّني كنت أنوي الاحتفاظ بها إلّا أنّ تصرف منى دفعني إلى تغيير فكرتي، وإهدائها أول مفكّرة أحصل عليها في حياتي.

بدأت أحب منى، وأي حب هذا؟! كنت أسرع إلى المدرسة فقط لرؤيتها، وبما أنّها تسكن قريبا من حينا، كنت أذهب لأمر قرب بيتهم لعلّي ألمحها، وغالبا لا أحظى بمرادي فأعود إلى البيت خائبا. وإن وجدتها تلعب في حديقتهم، أو تطل من النافذة، كنت أمشي الخيلاء

كطاوس مزهو بنفسه، راجيا أن تلاحظ وجودي. دأبت على فعل ذلك مرارا، إلى أن يئست، واكتفيت بلقاءاتنا في المدرسة.

لم أجرؤ يوما على مصارحتها، كنت خائفا، وما جعلني أحتفظ بهذا الحب لنفسي، وأن أنساه، هو أنّ الحب محرم علينا، فهو يمس الشرف، والشرف خطّ أحمر لا يجب الاقتراب منه، وكذلك ما تعرض له نبيل الّذي عبّر لنجاة عن حبه في ورقة صغيرة، دسها في كتابها، وعندما عادت إلى البيت، وجدها والدها، وفي اليوم الموالي حضر إلى المدرسة غاضبا، أرعد وأزبد، ولم ينج أحد من تقريعه وسبه، بدأ بالمدير ثمّ المعلّمتين ونبيل، كيف لا وهو مفتش شرطة، أما نبيل، فلم يكمل عامه معنا، وتمّ نقله إلى مدرسة في نفس الحي.

درس

ء لاقتي بعادل بدأت تذبل، لم أعد ذلك التلميذ المتفوق، وأصبح له رفقاء جدد، بعضهم من أبناء الضباط، ويقطنون بحيه، ممّا كان سببا في عودتي أحيانا إلى البيت راجلا، وفي آخر مرة، كنت غبيا لدرجة كبيرة، كدت أتسبب لنفسي في كارثة حقيقية.

دقّ الجرس معلنا انتهاء حصّة المساء، سبقني عادل إلى السيارة، وتجاهلني، لحقت به، حدّثته فلم يجبني، فتدخّل السائق الشاب، ونهاني عن الركوب.

رفضت الامتثال لأمره، فهو مجرد سائق، أمسكت بمقبض الباب الخلفي، فما كان منه إلّا أن انطلق مسرعا غير آبه بحشود التلاميذ الّتي تملأ الشارع، لم أستسلم، وبدأت أركض بسرعة آملا أن يخفّف السرعة عند المنعطف، لعلّني أستطيع تحرير نفسي من هذه الورطة.

بدأ الألم يطرق أبواب قدمي الحافيتين، لم أنتبه إلى نعلي، ولا أعرف كيف فقدتهما.

والسائق الشاب كان يريد أن يلقّنني درسا، فلفّ دون أن يخفّف من سرعة السيارة، الّتي انعطفت بشكل مجنون نحو اليمين، لدرجة أنها مالت، رأيت العجلة اليمنى ترتفع عن الأرض قليلا.

خفت أن تسحبني الجيب معها إن انقلبت، أطلقت مقبضها، واستمررت في الركض لكن خطواتي كانت صغيرة، وسرعتي ضعيفة، أردت التوقّف قبل أن أصطدم بالنخلة التي تقترب مني بسرعة، فوقعت على الاسفلت، وانزلقت لمسافة طويلة، من حسن حظّي أنّ رأسي لم يصطدم بالأرض، لكن يدي وصدري، نالا نصيبهما، وكذلك ملابسي الّتي تمزّقت بفعل الاحتكاك، لم تمْهلني سيارة قادمة بسرعة من الخلف، وبوقها العالي جعل الجميع ينتبه إلي.

استجمعت قواي بسرعة، قمت وركضت إلى الرصيف القريب، رفعت يدي أتفدهما، بشرتي قُشّرت، ركبتي وصدري كذلك، أحسست بألم شديد، والتنفس أصبح عذابا مؤلما.

عدت أدراجي باحثا عن نعلي.، وجدت الأول فالثاني، حملتهما.

كنت مصدوما، لم أكلّم أحدا، حتى الكبار الّذين جاؤوا ليطمئنوا علي لم أجبهم، وبدأت أفكّر كيف سأبرر لأسرتي كل هذا.

منذ هذه الحادثة، صرت أعود راجلا إلى البيت، وفي المرات القلائل الّتي دعاني فيها عادل كي أرافقه رفضت دعوته، واعتدت في طريق عودتي إلى البيت ألّا أستعمل الرصيف، سرت مرارا بمحاذاة

السيارات ألمسها، وأحس بها تنساب من بين أصابعي، لا أعلم ما الّذي سعيت إلى إظهاره بهذا التصرف، لكن ملمس السيارات كان يغريني.

يوم جديد، توجهت إلى المدرسة، جلست في مكاني أنتظر بدء الدرس، ولم أكن أعلم أنّ معلّمتي ستختار تصرفي كموضوع له، وبدل اللغة الفرنسية، ارتأت أن تقدمه بالدارجة، بدأت بالحديث عن الأخطار المحيطة بنا، ثمّ أشركتنا، فذكرنا كل ما نعرفه، هنا تدخّلت وسألتني أنا بالذات:

- هناك خطر آخر لم تذكره؟؟ هل عرفته؟؟
- لا!!! حينها سألت زملائي.
- هل منكم من يعرف خطرا يهدّد عليًّا على الدوام؟؟؟

لا جواب، إن كان علي نفسه لا يعرفه! كيف لنا أن نعرفه؟!

جميل صرت موضوعا للدرس، هذا ما كان ينقصني، سيصل الخبر إلى والدي.

- علي مستهتر، فهو يترك الرصيف المخصص للراجلين، ويسير بمحاذاة السيارات والشاحنات، بل إنّه يلمسها بيده، مشكلته أنّه لا يهدّد حياته فقط، بل يهدّد حياة السائقين

أيضا. عليكم ألّا تكونوا مثله، وتجنّبوا اللعب في الشارع، والاقتراب من السيارات وهي تسير، واستعملوا الرصيف دوما، ولا تعبروا الشارع إلّا من الممر المخصص للراجلين.

أنهت كلامها، نظرت إلي، رفعت سبابتها مهدّدة:

- وأنت يا علي إن عدت لمثل هذا التصرف سيكون لي معك شأن آخر.

أكرهك معلّمتي، ومن اليوم لن أجيب عن أسئلتك، ولن أشارك في دروسك، ولتذهبي للجحيم. كان هذا قراري، وكان له أثر سلبي على تعلّمي، وبسببه صرت بعد تلميذا عاديا، بل فاشلا في اللغة الفرنسية.

هلوسة

لم أستطع البلع، أصبت بالتهاب اللوزتين، مرض لازمني منذ الصغر، لكنّه يزداد حدّة كل سنة، اكتفيت بكؤوس الشاي، ثمّ انتظرت موعد الخروج إلى المدرسة.

انطلقت بخطى وئيدة، أسحب قدمي بعناء، المحفظة على ظهري ثقيلة، لم أحس بثقلها إلّا اليوم.

وصلت إلى المدرسة بمشقّة، ليس مسموحا لي بالغياب، إن كنت سأموت فعلي أن أموت داخل حجرة الدرس، بين الطاولات، مع الدفاتر والأقلام والسبورة، علي أن أكون شهيد العلم.

مع اقتراب حصة اليوم من نهايتها، بدأت حالي تسوء، مفاصلي تؤلمني، والحمرة تعلو وجهي معلنة وصول الحمى، طنين في أذني، والقشعريرة تدغدغني وتفر قبل أن تعاود الكرة.

دقّ الجرس وقد بلغت أقصى ما يمكن أن أتحمله، صداع رهيب، سكاكين تمزق مخّي.

وصلت إلى البيت منهكا، من حسن حظّي أنّ باب البيت كان مفتوحا، قدماي لم تعودا قادرتين على حملي، دفعت الباب ودخلت، رميت المحفظة، واستلقيت على أقرب فراش، وغططت في نوم عميق.

استيقظت عصرا أشكو بردا شديدا، وأطلب أن يغطّوني، كانت أمي جالسة عند رأسي، غطاء واحد لا يكفي يا أمي، ولا حتى غطاءان. ناولتني كأس الدواء، شربته، وعدت إلى النوم بعد أن أحسست بالدفء يغزو جسدي.

فتحت عيني، فوجدتني في غرفة لم أرها من قبل، وضوء ساطع مسلّط على وجهي، حاولت صدّه بيدي، لكنّها كانت شفّافة، هه!! يدي من زجاج، بدأت الكلل تتساقط من السقف، وتحدث صوتا عذبا وهي تضرب الأرض وتعاود مرات ومرات قبل أن تتوقّف، وجه من هذا الّذي يحدّق في، ملامحه غريبة، اقتربت أمي وسط هذه الفوضى، نظرت إليها وابتسمت قائلا:

- ما هذا الفستان الجميل الّذي ترتدينه؟؟ متى اشتراه لك أبي؟؟؟

لم تجبني، حملتني، وأسرعت بي إلى المشفى، كان ممتلئا عن آخره، جلست والدتي على الرصيف خارج المستوصف، واستلقيت عليه واضعا رأسي على فخذها في انتظار دورنا. رحت أنظر إلى هذه المخلوقات، وهذا المكان العجيب، وأنا أرتجف من شدّة البرد.

نادتنا الممرضة، لقد وصل دوري، دخلنا بصعوبة، نحتكّ بأجساد المرضى ومرافقيهم الّذين رفضوا الانتظار في الخارج.

أجلسني الطبيب على السرير، وضع سماعته على صدري، كنت أرى شفتيه تتحركان، لكنّني لم أسمع شيئا، فضحكت منه بجنون، كيف لطبيب لم يعالج نفسه أن يعالجني؟؟؟ مدّ قطعة خشبية نحو فمي ففتحته، ضغط على لساني، وراح يتأمل سبب عذابي.

تحدّث مع الممرضة، ورأيتها تهزّ رأسها وتهرول مسرعة إلى الخارج، فعرفت حينها أنّني فقدت السمع، عادت بسرعة، تحمل شيئا في يدها، أنزلت أمي سروالي، ووضعتني على فخذها، فدست الممرضة أداتها في مؤخّرتي، قطعة معدن بارد، انزعجت لكن تعبي منعني من التحرك.

أخرجَت المحرار، ورفعته لتقرأ الإشارة، بدت الدهشة على وجهها، تفاجَأ الطبيب عندما أخبرته، لم يصدّقها، فناولته المحرار ليتأكّد، يبدو الأمر خطيرا، رأيته يتحدّث بسرعة، ويهز ذراعيه وهو يشرح لها ما يجب القيام به.

وبالفعل حملتني أمي تتبع الممرضة إلى غرفة العلاج.

وهناك فتحت علبة، وأخرجت منها قنّينتين، الأولى بها مسحوق أبيض كالدقيق، لها غطاء مطّاطي أحمر، مثبت إلى الزجاجة بقطعة

معدن، والثانية فيها سائل كالماء، تشبه قنّينات العصير، لكنّها بحجم الأصبع، أخرجت حقنة، ثبتتها بشفتيها.

رفعت زجاجة السائل، ضربت قمتها بالأصبع الوسطى عدّة مرات، أمسكت عنقها، وكسرته، ثمّ سحبت السائل بالمحقنة، أدخلت إبرتها في الغشاء المطّاطي، ضغطت فإذا بالسائل يلتحق بالمسحوق الأبيض في سجنه. رجت الزجاجة بقوة، فالتحم السجينان، وتحولا إلى سائل أبيض كالحليب.

سحبت المحلول بالمحقنة، رفعتها وإبرتها باتجاه الأعلى، ضغطت ببطء إلى أن نزلت قطرتان، وقفت ملتصقا بأمي، صدري على فخذها، وقدماي بالكاد تلمسان الأرض، أنزلت الممرضة سروالي مرة ثانية، مسحت وركي بسائل بارد، أحسست به يتخذّر، فعرفت أنّ الإبرة غُرِست، والسائل يدخل جسمي من ثقب صغير، رفعت سروالي، وطلبت من والدتي أن تحضرني للمشفى خمسة أيام متتالية.

عادت بي أمي إلى البيت. وضعتني في فراشي، فاستسلمت لنوم عميق.

استيقظت ظهرا في اليوم الموالي، بكيت لأنّني فوتت موعد المدرسة، طمأنتني، وأخبرتني أنّني في عطلة لثلاثة أيام بسبب المرض، مرض لم يعد ينفع معه إلّا حقن البنسيلين.

لعبتي

أ حب مشاهدة التلفاز، لا أفرق بين برامج الأطفال والكبار، هذا الصندوق العجيب يسحرني، وعندما أشاهده أندمج بحيث لا أسمع من حولي، ولا أحس بهم، إلّا أنّ تعلّقي بالتلفاز لم يكن ليطغى على رغبتي في اللعب.

أبناء الفقراء مثلي كانوا يصنعون ألعابهم، كانوا يعرفون ما يسمى الآن إعادة التدوير، وكانوا يمارسونه، وقلّما نحصل على لعب مصنوعة، في مناسبات نادرة كعاشوراء، أو من ضيف واع.

في بداية السنة، وقبل أن تتغيّر نظرتي لمعلّمة اللغة الفرنسية، وتتغيّر أيضا معاملتها لنا، كانت قد طلبت منّا أن يحضر كل واحد، شيئا من منزله: لعبة، مذياعا غير مرغوب فيه، آنية لم تعد تستعمل، أي شيء يصلح لأنّ تمّلأ به جانبا من الخزانة عَلّقت عليه ورقة مكتوب فيها متحف القسم.

عدت إلى البيت متحمسا، بحثت في أغراضي عن شيء يمكن أن يفيد، شيء مميز لا يمكن أن يحضر أحد التلاميذ مثيلا له.

كنت أملك لعبة هي عبارة عن رجل حديدي، يمكن تحريك أطرافه ورأسه، كنت أحبه كثيرا، فهو يشبه بطل سلسلة الرسوم

المتحركة آنئذ، والّذي يحارب الغزاة الّذين استطاعوا استنساخ الدينصورات والتحكّم فيها لغزو الأرض، كان منقذا للبشرية.

قررت أن أعيره للمعلّمة، نعم أنّها إعارة، ستضعه في المتحف وتستعمله عند الضرورة، ثمّ سأستعيده في نهاية السنة الدراسية، وإلّا فما دور تلك اللائحة الّتي دوّنت فيها أسماؤنا وما أحضرناه.

كانت دميتي مفيدة نوعا ما، استعملتها المعلّمة عدّة مرات: مرة لتعطينا أسماء أعضاء الجسم، ومرات لتشرح لنا فعلا استعصى فهمه. كنت فخورا بها وبنفسي.

في إحدى الحصص طلبت مني المعلّمة أن أقرأ، هه، كنت أستغرق في كل مقطع قرابة الدقيقة، وفي الأخير يخبرني زملائي ساخرين أنّني أخطأت، لم تؤثّر في سخريتهم، فهذا اختياري وقراري، لا أريد تعلّم الفرنسية.

ظلّت المعلّمة صابرة وأنا أعذب لغة موليير، لكن صبرها نفذ، فنلت حصّة من الشتم والتقريع، وكان القرار أن أحمل أدواتي، وأفارق منى، لأجلس في الطاولة ما قبل الأخيرة من الصفّ الأوسط، قالت:

- من الآن فصاعدا ستجلس هنا أيها الغبي!

لست غبيا معلّمتي، أنا عنيد فقط، ولماذا لم تسألي نفسك عن تفوقي في الرياضيات؟ الغبي لا يتقن أي شيء، فما بالك بمن يتقن الرياضيات.

زاد كرهي للمعلّمة وللغتها، وندمت على إعارتها لعبتي، فكّرت مرارا أن أسرقها خلسة من الخزانة، وليتني فعلت، لأنّني لم أسترجعها منها، لقد فقدتها وفقدت معها ثقتي ببعض المعلّمين.

بلال

صار مع المدير شخص أنيق المظهر، في البداية كنت أجده في الإدارة حين ترسلني معلّمتي لإحضار الطباشير، أو لإيصال طلب ... وكان هو من يتواصل معي، أما المدير، الّذي كان من أبناء المنطقة، فلم يستقبلني مباشرة قطّ إلّا في بيته، حين ألعب مع ابنه.

السيد العثماني الّذي تبيّن فيما بعد أنّه معلّم بدون قسم، عمل مساعدا للمدير في انتظار إيجاد قسم له، وهو شيء صعب، فمدرستنا صغيرة مقارنة بالمدارس الثلاث الأخرى الموجودة في نفس الحي، ولا تفصل بينها إلّا بضع دقائق من المشي.

كنّا مرة في حصّة اللغة العربية، فسمعنا طرقا على الباب، فاتّجهت أنظارنا نحوه بفضول.

- تفضّل. قالت المعلّمة.

دخل العثماني يتبعه طفل كبير الجثّة، تبدو عليه علامات الخجل، لا يكاد يرفع رأسه حتى يطأطئه بسرعة، جبينه يتصبب عرقا، يداه ترتجفان وتدوران، وكأنّ هناك مخلوقا خفيا يلويهما، ترتسم على وجهه ابتسامة، وسرعان ما يكتسحه وجوم غريب.

تحدّث العثماني مع المعلّمة، ثمّ غادر، اتّجهت نحو الطفل، أمسكته من ذراعه، وخاطبتنا:

- هذا زميلكم الجديد بلال، إنّه أصم، ولذلك لا يتقن الكلام، إن أخطأ فلا تستهزؤوا به، وساعدوه قدر المستطاع، فهو يتيم، ووحيد أمه.

أخذته إلى مكانه، وأخرجت كراسة الدرس اللغوي والدفتر من محفظته، وضّحت له المطلوب منه، ثمّ عادت إلى مكتبها طالبة منّا أن نسرع في إنجاز تمّارينا، وهو شيء صعب مع وجود ضيف جديد.

كنّا نلتفت إليه، فضولنا ورغبتنا في الاكتشاف منعانا من التركيز. لأول مرة أقابل شخصا أصم أبكم، كما أنّ كونه يتيما حرك مشاعر الشفقة والرحمة في قلبي، فحكايات والدتي، وحديثها عن أجر الإحسان إلى اليتيم آتت أكلها. كنّا نتلهّف لفترة الاستراحة كي نتعرف عليه أكثر، ونتقرب منه.

أحببت بلالا، وأصبح بلال يجلس بجانبي عند معلّمة اللغة الفرنسية، الطاولة ما قبل الأخيرة من الصفّ الأوسط، تخلّصت مني مني، أو أنا من تخلّصت منها، أنا الآن أجلس مع الفاشلين المنبوذين، ولتحفيز التلاميذ كانت المعلّمة تحذّرهم أن يصبحوا مثلنا، يبدو أنّها لم تعد مقتنعة بخطّة التعلّم بالقرين.

أتاحت لي هذه التجربة أن أتعرف أكثر على هذا النوع من التلاميذ، أطفال صغار يعانون مشاكل أثّرت على تحصيلهم، وبدل مدّ يد العون لهم، تمّ إقصاؤهم، وحرمانهم أكثر، أطفال أذكياء حكم عليهم بالغباء، ولا سبيل لهم لدفع التهمة عنهم، يذوقون ألوانا من التعذيب النفسي والجسدي، ورغم ذلك لا مفر لهم من المدرسة، ولكن يحدث أن يضغط عليهم المعلّمون أكثر من طاقتهم، فيغادرون أسوار المدرسة نحو المجهول، وهو ما حدث لبلال.

رغم حالته الجسدية والاجتماعية كانت معلّمة الفرنسية قاسية معه، فمعاناتها مع ضعفنا في مادتها بادية عليها، كان قدوم بلال؛ التلميذ المشكلة؛ هو القشّة الّتي قصمت ظهر البعير، هنا ظهر جانبها السيء، ربّما كانت لديها نية مبيتة للتخلص منه، فمنذ قدومه زادت قسوتها، وأصبحت أكثر عصبية، وصارت تشتمنا لأتفه الأسباب.

وفي أحد الأيام فاجأتنا باختبار على الألواح في جدول الضرب، كنت أجيب بسرعة، وأترك لوحتي أمام بلال، لعلّه ينقل الجواب الصحيح منها، لكنّه كان بطيئا، وكان يضيع الوقت وهو ينظر إلى المعلّمة، لا أدري إن كان خوفا منها، أم رغبة في فهم المطلوب منه،

فكانت جميع أجوبته خاطئة. أنهينا الاختبار، ووضعنا الألواح في المحافظ.

طلبت منه المعلّمة أن يقوم إلى السبورة، اتّجهت إلى مكتبها، فتحت الدرج، أخرجت ملفّا أحمر فارغا من الورق المقوى وبقلم الحبر الجافّ رسمت عليه، ثمّ أخرجت مقصا كبيرا، وقصت رسمها، لنكتشف أنّها صنعت تاجا له أذنان طويلتان، كتبت عليه في الوسط: "أنا حمار"، ثبتته على رأس بلال، وكانت العبارة على جبينه بالضبط، كان ينظر إلينا معتقدا أنها تشجعه. ربطت حبلا على عنقه، ثمّ طلبت من سمير؛ التلميذ المتفوق؛ أن يركب على ظهره، هنا فهم بلال ما كانت تفعله، فتسربت الدموع من عينيه، لم يصرخ كما اعتدناه يفعل.

سحبت الحبل تجره بين الصفوف، ضحك أغلب التلاميذ، لم يكن ذلك كافيا في نظرها، فسحبته خارج حجرة الدرس لتعرضه على باقي تلاميذ القاعات الأخرى.

عادت تجر طفلا مكسورا، جلس قربي، حاولت أن أخرجه من صمته، أن أخفّف عنه، لكنّني فشلت، ظل ينظر إليها، ولم أره بعد ذلك اليوم.

أما هي فجلست وعلامات الارتياح بادية على وجهها، كانت راضية على نفسها، وكنت غاضبا منها، لأنها حطمته، وزاد كرهي لها وللغة الفرنسية.

فرحة

خرجنا من البيت بعد تناول الغذاء مباشرة، كانت أشعة الشمس حارة، وكنت أسرع الخطى وأنا بجانبه، أحاول مجاراته، لكنّني أفشل دائما.

متى سأكبر؟ حينها سأسبقه، وأتركه يلهث خلفي.. لا تنسى يا علي، فهذا الرجل كان يحملك على كتفيه، فترى الجميع يسيرون وأنت وحدك محمول، كان يدفع الدراجة النارية وأنت تلعب بمقودها فيبتسم لك ولا ينهرك، ثمّ إنّه سيوصلك إلى الإسكاف ويعيدك إلى البيت ثمّ يهرول نحو مخبزة الغزالة. عزائي الوحيد هو رؤية أخي الأكبر يركض هو الآخر بجانب أبي.

كانت هذه عادتنا نحن الفقراء، أما الأغنياء، فيأخذون أبناءهم إلى أقرب محل لبيع الملابس، ويشترون الملابس جاهزة، لكن الأثمّنة باهظة، الحذاء الواحد بمائتي درهم، ممّا يعني أنّ أبي يحتاج أربعمائة درهم ليشتري الحذاءين فقط، وهذا يعادل سدس أجرته الشهرية.

بدا الشارع طويلا لا ينتهي، والإسكاف بعيدا جدّا، وصولنا إلى المحل أنساني كل التعب، ودبت الفرحة في جسدي الصغير، ألوان وأشكال وأحجام مختلفة، والجميل أنّها لا تتشابه.

ألقى أبي التحية بينما كان من واجبنا تقبيل يد العربي الإسكاف المعروف، وبدوره داعبنا ومازحنا ببعض الكلمات، وكجميع الرجال كان سؤاله الأول عن المدرسة، وأحوالنا فيها، ودرجاتنا...

بدت الدهشة على وجهه وأنا أخبره أنّني أدرس بالقسم الثالث، لذلك ورغبة منه في قطع الشكّ باليقين سألني عن اللغة الفرنسية، كان اختبارا بسيطا، اجتزته بنجاح، وعلّق عليه "تبارك الله ما شاء الله، أحسنت!" قالها وهو يقوم من كرسيه مزيحا قطعة خشبية مثبتة على قاعدة مربعة الشكل، مقوسة قمتها المغطاة بقطعة حديدية صلبة، يستعملها لتثبيت القطع الجلدية المختلفة بالمسامير كي تصير نعلا أو خفا أو حذاء.

رائحة الجلد تتغلغل إلى رئتي، وتزيد نشوتي وانبهاري بالمكان الضيق المقوس أيضا، فهو جزء من البيت الذي كان عبارة عن نصف برميل إسمنتي كبير مقلوب، بناء أنشأه الاسبان للتكيف مع رمال الصحراء وحرارتها.

أمسك قطعة جلدية كبيرة بحجم سجادة الصلاة، وضعها على الأرض، وطلب من أخي أن يخلع نعله، ويضع كلتا قدميه عليها، الكبار أولا.

سحب قلما معلّقا أعلى أذنه، ورسم خطّا مغلقا يحيط بقدميه الحافيتين، ثمّ جاء دوري فتكررت العملية.

تخيلت نعلي الجديد، فالنماذج المعروضة فتحت الباب أمامي، وإبداع هذا الرجل لا غبار عليه، يذكّرني بابن عمتي ورسومه، هذا فنّان من نوع آخر، وزاد إعجابي به عندما سألني إن كنت أرغب في حزام لنعلي، وكان جوابي دون تردّد نعم! نعم!

كنت أكره أن يسقط النعل من قدمي أثناء الجري، وصديقي هذا سيريحني من عذاباتي الّتي تتكرر كلّما طاردني أصدقائي، أو سابقتهم، وكنت أنهزم بسبب توقفي لالتقاطه، إلى أن صرت ألعب حافي القدمين، فيما نعلي مثبتان إلى ساعدي، حيث أدخل يدي فيهما وأسحبهما باتجاه المرفق، فيعلقان في الساعد ولا يتحركان، لكنّهما لا يحميان قدمي من الحجارة والحصى، وأنا أسابق الرياح.

قبل أن نغادر محل ذلك الشاب سأله والدي عن موعد تسلّم النعلين، بعد يومين كان جوابه، حاول والدي استعجاله، فردّ أن العيد على الأبواب، والطلب كثير هذه الأيام، وأنّ الموعد مناسب إن هو أراد منتوجا جيدا.

بـدأت أشـعر بالدوخـة، وعنـدما خرجنـا، لامـس هـواء الشـارع وجهي أحسست به خفيفا ومنعشا، فشهقت شهقة طويلة لأسحب أكبر قدر منه، وحين أخبرت والدي، ضحك من كلامي، وعلّق:

- إنها رائحة الغراء، إن استنشقت كمية كبيرة منه قد تفقد الوعي.

وتساءلت كيف لا تؤثّر في الإسكاف؟

يومان من الانتظار، من الأحلام اللذيذة، من الشوق واللهفة.

لم يخب أملي، وأنا أتسلّم نعلي الجديد، وكانت فرحتي غامرة وأنا أسحب حزامة ليلتفّ حول كاحلي حين جربته، أعدته إلى العلبة، وطرنا أنا وأخي كعصفورين صغيرين إلى البيت، سلّمنا العلبتين لأمي فخبأتهما في انتظار عيد الفطر.

عويطة

كان الحصول على المعلومة مكلّفا، يحتاج جهدا، عكس أيامنا هذه، ورغم ذلك كان الأطفال يتنافسون فيما بينهم، حين يتعبون من اللعب تبدأ جلسات التحدّي: ألغاز، وأعلام الدول، وأسماء عواصمها وعملتها، حساب ذهني، ثقافة إسلامية وعامة، تعرف الأعلام من كتّاب ومفكّرين ومخترعين، مشاهير الفن والموسيقى والغناء، شعراء، أبيات شعرية مشهورة...

كانت رؤوسنا الصغيرة تخزن كما هائلا من المعلومات، نادرا ما تجد طفلا في الابتدائي لا يعرف عواصم البلدان العربية على الأقل، وأعلامها وعملاتها. فما بالك بتلاميذ المستويات الأعلى.

الكتب كانت عملة نادرة، إن كنت محظوظا سيكون في بيت صديق من أصدقائك مكتبة صغيرة ثمينة، نستعير الكتب ونعيرها، نتشارك المعرفة، حتى الباعة استغلّوا حبنا للكتب، فكنت تجد بائع الفواكه الجافة، أو مول الزريعة كما نسميه في المغرب، يعير الكتب والمجلّات مقابل ثمّن رمزي.

كانت القراءة طقسا، وفعلا مقدّسا، من لا يقرأ سيصير انطوائيا ثمّ منبوذا، إذ لا يمكنه مجاراة أقرانه في نقاشاتهم وحواراتهم، ويتنبأ له الجميع بالانحراف أو مغادرة المدينة.

حتى الموجودون على هامش المجتمع، من مدمنين ومنحرفين، يقدّسون العلم، يسألون الطفل عن مستواه الدراسي، ويحثّونه على بذل الجهد، وعلى الابتعاد عن الطريق الذي سلكوه هم: طريق الكحول والمخدّرات مؤكّدين أنّ المدرسة هي سبيل الخلاص والنجاة.

وفي البيت، ليس من حقّك أن تقول لا أعرف، إن سلّمك والدك ورقة وسألك عن فحواها، أو الجدوى منها، أو الإجراء الّذي يجب القيام به، أو التعليمات الواردة فيها، عليك أن تقرأ وتجيب وتشرح، وإلّا فإنّك لم تتعلّم في المدرسة شيئا، كما لا يحقّ لك أن تتصرف تصرفا غير لائق، كأن تدخل البيت ولا تحيي وتسلّم، أو ألّا تهب قائما عند دخول والدك، وبقائك منبطحا أو جالسا تكتب على دفترك، أو أن تمدّ رجليك وأنت جالس مع الكبار، أو أن تقول لا لوالديك، هذه سلوكيات مرفوضة وأنت تعلّمتها وجلبتها من المدرسة.

الكبار دائما يستنكرون: ما الّذي تتعلّمونه في المدرسة؟ أو أ هذا ما تتعلّمونه في المدرسة؟ ونحن كنّا نرغب في دفع التهمة عنّا وعنها.

أصدقاؤنا الّذين اضطرتهم ظروفهم الاجتماعية لمغادرة الفصول الدراسية، وولوج سوق الشغل، يغبطوننا ويشجعوننا على الاستمرار.

والوقت!! الوقت ليس ملكا خاصا، لا يحقّ لنا تضييعه، وعلينا أن نحسن استغلاله. اعمل بجدّ الآن، وأنت صغير، لترتاح وتستمتع عندما تكبر، لا تقلب الآية، لا تفعل العكس، إن أردت أن تكون إنسانا ناجحا.

في نظر الناس في حينا كنت أقدّر الوقت، لذلك لقّبوني بعويطة، فأنا الطفل الوحيد الّذي لا يجعلهم ينتظرون.

إذا أرسلوه لقضاء حاجة من حوائجهم عاد بسرعة، وقد أحببت هذا اللقب، كيف لا وهو لقب بطل أولمبي رفع راية بلدي عاليا في لوس أنجلوس، لقّبني الأطفال بمارادونا، لكنّني تخليت عنه تدريجيا بسبب الضربات والإصابات المتكررة، وبدل الهجوم والمراوغات، ركنت إلى الدفاع ولكن بعقلية المهاجم ودهائه.

أشارك أقراني لعبة كرة القدم الّتي نفضّلها، فأرى جارة من الجارات تخرج من بيتها مهرولة، تنادي عويطة، فأذهب إليها، تشرح لي أنّ لديها ضيوفا وتحتاج كذا وكذا، آخذ المال وأركض دون توقّف إلى الدكّان، وليس أي دكّان فقد طلبت منّي أن أذهب إلى محماد الأمازيغي أو الشلح كما قالت، لأنّ سلعته جيدة وأسعاره معقولة.

أحمل الأغراض وأعود راكضا. أدقّ الباب لاهثا، تخرج الجارة تتسلّم طلبها، وإن كنت محظوظا أحصل على نصف درهم أو درهم، وهو كاف لأستعير كتابا من "مول الزريعة". وغالبا ما كانت تطاردني الدعوات بدل الدراهم.

أصبحت معروفا في الحي، هذه عجوز تقطن لوحدها، وهذا كاتب عمومي لا يسعه إغلاق محلّه، وذاك موظّف عاد للتو متعبا من عمله، وتلك حامل بالكاد تستطيع التحرك، وذلك شرطي لا يمكنه التزحزح من أمام باب البناية، وهذان زوجان لا أبناء لهما، كنت أحب بعض الأشخاص، خصوصا المتعلّمين، الّذين انتبهوا لشغفي، فأصبحت أحصل منهم على قصص، ومجلّات، ومفكّرات بدل المال.

ولم يكن يؤلمني أن يطلب الناس مساعدتي ويتركوا أبناءهم يلعبون ما دمت أحصل على أوراق أقرؤها أو لعبة أتسلى بها، وأحيانا لمجة من قطع سردين معلّب داخل نصف خبزة، ومشروب كوكاكولا بارد.

هكذا قضيت صيف هذه السنة، لا يمر يوم إلّا وقد ساعدت ثلاثة أشخاص على الأقل، وكان لهم الفضل أن استطعت الحفاظ على مستواي في اللغة الفرنسية، رغم كرهي لها.

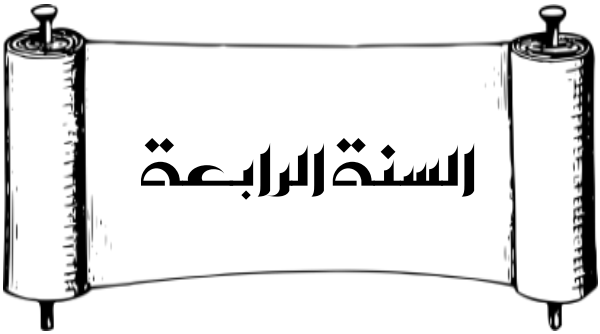
السنة الرابعة

أسماء

ع نادي سبب مشاكلي، السنة الرابعة، فاتني أقراني كثيرا في تعلّم اللغة الفرنسية، ولا زلت مصرا على الامتناع عن المشاركة في دروسها.

معلّمة جديدة صارمة، بجلبابها الأخضر ومنديل يغطّي شعرها، عكس باقي المعلّمات كانت متحجبة، تعمل بجدّ وحب لما تقوم به. كنت أفهم دروس النحو والصرف والإملاء، لكنّني أجد صعوبة في كل ما هو شفهي، تعبيرا وقراءة، إن قرأت سرا أقرأ بسلاسة، لكن صوتي يرعبني وهو يتكلّم الفرنسية، فأتلعثم، وتزيدني ضحكات زملائي تلعثما، وكنت أتعذّب وأنا أقرأ أو أتحدّث بهذه اللغة.

في البداية كان مكاني في الخلف مع الفاشلين، جلوسي في الخلف يتيح لي ملاحظة كل شيء، تصرفات المعلّمة وردود أفعال الأطفال، أطفال تمّ تحويلهم تدريجيا إلى وشاة متملّقين من الدرجة الأولى.

إن كنت ترغب في التقرب من المعلّمين يكفي فقط أن تشي بزميل، وكلّما كثرت وشاياتك كلّما ازداد قربك، وزادت معه ثقة المعلّمين بك، وإن كنت متفوقا فستصبح رئيس القسم، افعل ما يحلو لك ولن يجادل أحد.

أما أنا فأجلس وسط الصف أي أنّ مستواي متوسط، وخدماتي قليلة.

أسماء بنت ضابط في الجيش، تسكن قرب عادل، كانت واشية بامتياز، استطاعت معلّمتنا أن تحولها إلى جاسوسة خاصة، لقد زودتها بدفتر خاص، كي تؤدّي مهامها على أكمل وجه.

في الدفتر صفحة لكل تلميذ إلّا أسماء. في أعلى الصفحة اسم التلميذ، والباقي هو ملاحظات أسماء، الواجبات الّتي لم يتم تسليمها، الدروس الّتي لم يتم حفظها، عدد المرات الّتي أزعج فيها زملاءه حين تغيب المعلّمة لأداء صلاة العصر، اعتداءاته على زملائه في قاعة الدرس، أو خارج المدرسة، الكلمات النابية الّتي تفوه بها...

قد تلتصق بك تهمة فقط لأنّ أسماء منزعجة منك، ولا سبيل لك لدفعها ولو شهد التلاميذ كلّهم لصالحك، فالمعلّمة تثق بها ثقة عمياء.

تعلّمنا المعنى الحقيقي للظلم والجبروت، وبدأ الحقد يعرف طريقه لقلوبنا الفتية، وتعلّمنا أيضا فن النفاق، فالفتيات يلعبن مع أسماء فقط لتجنّب شرها، وأصبحت تحصل على الهدايا من أغلب التلاميذ، هذا

يهديها قصّة، وذاك قلما، وتلك علبة علكة... أنت وحظّك، قد ترفض تسلّم هديتك لأنها فقط تكرهك، تخبرك بذلك بكل وقاحة.

في البداية أُعجبت بأسماء فتحول إعجابي إلى شفقة، وحاولت قدر الإمكان تجنّبها، وتجنّب الاحتكاك بها، فالمسكينة لم تختر أن تكون واشية، والذنب كل الذنب لمن جعلها كذلك، ربّما أبواها، وربما معلّموها السابقون، ومعلّمتي لها حصّة الأسد فقد رسخت لديها سلوكا بوليسيا بامتياز.

عمّار

م. مرحبا بكم أبنائي، أنا معلّمكم الجديد عمار، سيقوم كل واحد منكم إلى السبورة ليقدّم لنا نفسه.

هكذا افتتح معلّمنا أول حصة. متوسط الطول والحجم، أبيض البشرة، وجهه طويل، شاربه خفيف كحاجبيه، لحيته متوسطة، تغطّي شفته السفلى، أنفه مستقيم وطويل، عيناه عسليتان واسعتان، يرتدي ملابس عصرية، غالبا سروالا وقميصا، مع وزرة بيضاء لا يفارقها إلّا يوم الجمعة، حين يرتدي الجلباب التقليدي المغربي.

يبدو أنّنا سندرس عند معلّمين مشبعين بالفكر الديني، الّذي بدأ يغزو العالم العربي، لكنّهما مختلفين تمّاما، كلاهما جادّان في عملهما، لكن السي عمار يختلف كلّيا عن الأستاذة خديجة، تشبعه بالفكر السلفي انعكس إيجابا على معاملاته، فكان طيبا حنونا، يرى أنّ اللين هو السبيل الأمثل لتلقين الأطفال، وكان يرفض الوشاية، بل حذّرنا منها لأنّها حرام.

كنّا سواسية أمامه، الفقير والغني، الذكر والأنثى، المتفوق والفاشل... لا أحد منّا يحظى بمعاملة خاصة، لم نسمع منه قطّ سبا ولا شتيمة، حالة واحدة تستدعي منه عقابنا: إحداث الضوضاء.

أهم شيء كنّا نتمتع به في حصّته هو اختيار أماكن الجلوس، ارتحنا من تصنيفنا حسب مستوياتنا، في قسمه تجد المتفوق في آخر الصفّ، والفاشل قرب السبورة، وهو الوحيد الّذي سمح لنا بالاقتراب من المكتب، ولو كان ذلك من باب الفضول فقط، نعم أنّها الحرية يا ناس!!!

كل هذا ألهب فينا الحماس ودفعنا إلى الرغبة في إرضائه، فاجتهدنا وثابرنا، وكنّا نتنافس في ذلك تنافسا شديدا، بسببه عشقت القراءة، وأحببت الكتب، قرأت قصصا كثيرة: المغامرون الخمس، وكليلة ودمنة، وحي ابن يقظان، وغيرها كثير، كما أنّني شرعت في تصفّح الجرائد والمجلّات.

عكس المعلّمة، كان يؤدّي صلاة العصر في حجرة الدرس، ومعه تعلّمنا احترام الأذان، فقد كان يصمت فور سماعه. في البداية لم نعرف سبب صمته، وعندما سألناه لم يجب، اكتفى بالقول إنّنا سنكتشف الأمر لوحدنا لأنّنا أذكياء، وفعلا اكتشفناه دون مساعدة.

- أنّه وقت الاستراحة، وكما تعلمون فمنذ الحادثة صرتمّ ممنوعين من الخروج إلى الساحة، لن أحرمكم من حقّكم شريطة تجنّب الفوضى.

غيّرت الحادثة مجموعة من الأمور، لكنّها لم تغيّر معلّمنا، استغلّت معلّمتنا فترة الاستراحة لمزيد من التمارين والواجبات، في حين كنّا عند السي عمار نخرج لدورات المياه، نأكل ما أحضرناه من طعام أو حلويات.

دعانا مرة للصلاة معه، فتسابق التلاميذ لأخذ أماكنهم في الصفّ، وجدها البعض فرصة للتملّق، والبعض الآخر استغل الأمر للخروج من حجرة الدرس، كنّا ثلاثة تلاميذ لم نتحرك من أماكننا.

- ألن تصلّوا معنا؟
- لا يا أستاذ. كان جوابنا.
- لكم حرية فعل ما تشاؤون، وأحب أن تقرؤوا، خذوا من الخزانة ما تشاؤون، ولا تضيعوا الوقت في التفاهات.

انغماسي في القراءة كان ينسيني كل شيء، ولا أنتبه إلّا حين يلمسني أحد الزملاء لينبهني أنّ فترة الاستراحة انتهت، كم أحببت أن تطول مدّتها!

صارت هذه عادتي في القسم، ومعلّمنا كان كريما، فقد اقتنى مجموعة جديدة من المجلّات والقصص لإغناء مكتبة القسم، وكنّا مثل النار كلّما زاد حطبها اتّقدت وطلبت المزيد.

سألت معلّمي مرة إن كان بإمكاني استعارة كتاب بدل قراءته في فترة الاستراحة، كي أتمّكن من الصلاة خلفه، فوافق شريطة ألّا يقضي معي أكثر من ليلة واحدة، سألته عن الثمن فضحك، وأخبرنا أنّ استعارة الكتب مجّانية.

في البداية وجدت صعوبة في إنهاء قراءة ما استعرته من كتب في ليلة واحدة، خاصة مع كثرة واجبات اللغة الفرنسية، لكنّني صرت لا أترك الكتاب حتى أنهيه، ولو اقتضى الأمر الحرمان من النوم في سبيل ذلك، فاعتدت السهر والنوم لسويعات، صارت الكتب أصدقائي، تؤنسني وتسلّيني، تجعلني أضحك وأبكي ...

بفضل معلّمنا، عرفنا معنى الإيثار، وقلّتْ شجاراتنا، وصرنا نحل خلافاتنا بالحوار، ونتقبل اختلافنا، ولا نحوله إلى خلاف، تغير سلوكنا كثيرا، كنّا نرى فيه قدوة، وكان ينصحنا بالاقتداء بالنبي ﷺ، فبدأنا النبش في سيرة خير الأنام ننهل منها ونستفيد.

مخلوقات

أ نهينا عملنا، وقف أمام السبورة، رسم خطّا أفقيا أزرق يقسمها نصفين، كنّا نترقّب ما سيفعله، كتب بخط غليظ "البحر" تحت الخطّ، وترك لنا أن نتخيل ما يمثّله فوق الخطّ، وضع الطباشير واستدار ليواجهنا.

أشار إلى كفّ يده اليمنى وقال:

- هذه سمكة! ودوركم أن تمسكوا بها كلّما قفزت خارج مياه البحر، لنجرب، هيا!!

تبادلنا النظرات، وصاح بعض التلاميذ فرحا، انتظر إلى أن عم الصمت المكان، فبدأ.

ببطء شديد كانت السمكة تسبح، ثمّ صعدت شيئا فشيئا وأعيننا تراقب، وتنتظر الفرصة المناسبة، قفزت خارج المياه، وقبل أن تعود صفّقنا، فجمدت مكانها تتلوى محاولة الهروب من قبضتنا.

ضحك معلّمنا وقال: أحسنتم! أعاد الكرة مرتين. ثمّ قال:

- والآن لنجعل الأمر أكثر واقعية.

أخرج من جيبه قفّازا كان قد ألصق عليه شكل سمكة ملونة، السمكة الآن حقيقية، تسبح بسرعة، تراوغ تقترب من السطح، وبدل أن تقفز خارجه تغطس فجأة، وكنّا نضحك لأنها خدعتنا، وجعلتنا نصفّق ونمسك الهواء، بين الفينة والأخرى تسمع تصفيقة عالية، تليها ضحكات الخيبة، أو صيحات النشوة والانتصار.

دقّ الجرس ليقطع علينا متعتنا، كنّا نرجوه أن يستمر، فوعدنا أن نكرر اللعبة أو نلعب غيرها، إن نحن أنهينا عملنا في الوقت المحدّد، وربحنا دقائق قبل الخروج.

بإشارة من يده، فهمت أنّ علي حلق شعري، وأنا أصافحه قبل الخروج من القاعة، وكنت أكره الذهاب إلى الحلّاق، أكره قص شعري، لسببين اثنين:

أولهما أنّ غالبية الحلّاقين يستمتعون بحلق رؤوسنا فلا يتركون فيها شعرة واحدة، فتتغير ملامحنا. وذلك يرضي الآباء، ويجعلهم يتخلّصون من نفقات الحلاقة مدّة طويلة، هذا ما جعل والدي يأمرني بالذهاب عند حسن عندما يسلّمني المال، لأنّه حلّاق جيد في نظره. أما الثاني فهو أنه أحيانا أكتشف أنّ كائنات صغيرة انتقلت إلى رأسي من أحد الزملاء، واستعمرت فروته تمتص دمي، فيظن من رآها أنّني شخص عفن لا يهتم بنظافته.

ومع مرور الوقت أصبح يتنازعني شعوران: شعور الامتنان للحلّاق لأنّه يساعدني على التخلص من القمل، ويعطي لشعري فرصة كي ينمو قويا ناعما، وشعور الرغبة في الحفاظ على شكلي الجميل.

وكنت أخدع والدي أحيانا، فأذهب عند الحلّاق مبارك، لأنه يستعمل آلة، فلا يجرح فروة رأسي، كما أنّه يسألني:

- رقم اثنان، أم واحد، أم صفر؟

فأجيبه قبل أن يغيّر رأيه:

- واحد! واحد!

فأخرج من عنده مثل المجنّدين. وإذا سألني والدي، أجيبه أنّني وجدت محل حسن مغلقا، فكان يصمت، ويستغل الفرصة، ويمرر كفّه على رأسي وهو يقول ممازحا إياي:

- قريعو! أي الأقرع.

يقال من رأى مصيبة غيره هانت عليه مصيبته! وهذا ما كان يحدث معي.

فحين كنت أخجل من صلعتي البراقة، وأدخل من باب المدرسة مطأطأ الرأس، كنت أسمع قهقهات الأطفال، فأظنّهم يضحون من شكلي، لأجد طفلا أو طفلين حلاقتهما مضحكة، فلا أتمالك نفسي لكنّني أحاول كبت الضحك.

يبدو أن بعض الأمهات يفضّلن حلق رؤوس أبنائهن، ومن عادة النساء، ترك قليل من شعر الناصية يغطّي جزء من الجبين، ودائرتين سوداوين عند قمة مؤخّر الرأس، ومنهن من تصنع من شعر الدائرتين ضفيرتين صغيرتين، لتبدوا كقرنين متدلّيين يصلان خلف الأذنين.

نحن فعلا كائنات فضائية غزت الأرض، لكنّنا نجهل ذلك.

عقاب

وهبني الله ملكة الحفظ، يكفي أن أسمع شيئا أكثر من ثلاث مرات لأحفظه: قرآن كريم، نشيد، درس الصرف ... أي شيء، وأجد صعوبة في محوه من ذاكرتي، وهو ما يتكفّل به الزمن، فسورة الملك أحفظها إلى يومنا هذا، منذ أن حفظتها في المستوى الثالث.

لم أجد قط صعوبة في حفظ دروس الصرف باللغة الفرنسية، بل كنت أحفظها حتى قبل مغادرتي حجرة الدرس، وأكتفي في البيت بالتدرب على طريقة كتابة كل فعل.

معلّمتنا لا تتساهل معنا فيما يخص دروس الصرف، وتتكفّل أسماء بتسجيل عدد الأخطاء الّتي ارتكبها كل تلميذ، خمسة أخطاء تعني عقوبة "الفلقة"، حيث يتلقى المُعاقَب عشر ضربات على قدميه بدل يديه.

عالِين صديقي، ويقطن بنفس الحي الّذي أسكن فيه، ارتكب مرة ثلاثة أخطاء، لكن أسماء ارتأت أن تدرجه ضمن اللائحة السوداء، فهي لا تطيقه، ولا أعرف سببا لكرهها له، سألتها المعلّمة عن المحظوظين الذين سينالون "الفلقة"، سمعت اسم صديقي، فدافعت عنه، ولكن لا حياة لمن تنادي، لم تصدّقني المعلّمة، أما أسماء فلم تتقبل ذلك.

في الحصّة الموالية، اتّهمتني بارتكاب خطإ واحد انتقاما، والمعلّمة صدّقتْها طبعا وكذّبتني.

بسببها نلت عشر ضربات على يدي، وبضرورة كتابة جدول الفعل "جرى" خمس مرات.

رفضت العقوبة، لأنّني مظلوم أولا، ولأنّني نلت حصّة الضرب مقابل خطئي ثانيا، ولأنّني عنيد هذا الأهم.

تضاعفت العقوبة فصار يتوجّب علي كتابة الجدول عشر مرات، ثمّ عشرين فخمسين. عندها استدعت المعلّمة أخي وأمرته أن يخبر والدي بما آل إليه وضعي، موضّحة أنّني صرت متقاعسا عن أداء واجباتي، وأنّه لم يبق لها إلّا عقوبة "الفلقة".

في البداية خفت أن يعلم أبي بالأمر، لكن أخي طمأنّني:

- لا عليك، تلك المعلّمة مريضة، أنا أعرفها جيّدا، فقد كنت تلميذها السنة الماضية.

في الغد ولأنني لم أكتب ما طلبته المعلّمة بإيعاز من أسماء، وأيضا لأنّ أبي لم يحضر، ومباشرة بعد حصّة الرياضيات، وقبل أن تبدأ حصّة القراءة، أخرجت أسماء دفترها وقاطعت المعلّمة:

- أستاذة؟ اليوم ستراقبين عمل علي، لديه عقوبة متعلقة بدرس الصرف.
- شكرا أسماء، وأنت يا علي:
- هل كتبت جدول الفعل خمسين مرة كما طلبت منك؟؟
- لا لم أكبته
- لماذا؟؟
- بالكاد استطعت إنجاز واجبات اليوم، داهمني الوقت.
- قم إلى السبورة وانزع حذاءك.

قمت، وجلست على الطاولة المقابلة للتلاميذ، نزعت حذائي، ثمّ أدخلت قدمي الصغيرتين في القمطر، وهو المكان الذي كنّا نضع فيه محفظاتنا، وانتظرت العقاب، دنت معلّمتي وفي يدها عصا غليظة:

- ما هذه الرائحة الكريهة؟؟؟ " إنّه حذائي."

قالتها وضربتني بكل قوتها، أو هكذا شعرت، حين رأيت الشرر يتطاير من عينيها، عشر ضربات متتالية، تجلّدت ولم أصرخ، لكن دموعي لم تطاوعني.

لمحت البعض وقد ظهرت عليهم علامات التأثّر، ومنهم من غطّى وجهه كي لا يرى ما يحدث، ورأيت الدموع في عيني بعض

الفتيات، فحولت بصري نحو أسماء، الّتي كانت تبتسم وتهزّ حاجبيها شامتة، فزادني ذلك صبرا وإصرارا على عدم إظهار تأثّري.

نلت حصّتي، وأخرجت قدمي من القمطر، وبينما كنت أنتعل حذائي، ابتعدت المعلمة وهي تلهث، جلست على مقعدها وسحبت من حقيبتها منديلا، مسحت به العرق من جبينها.

بالكاد استطعت الوقوف، أمّا السير فكان عذابا، ألم فظيع لم يسبق لي الإحساس بمثله، ورغم ذلك ضغطت على نفسي، وعكس من سبقوني استطعت أن أصل إلى مكاني دون مساعدة، وفي طريقي إلى مكاني ابتسمتُ لأسماء، وهو ما اعتبرته انتصارا.

كانت هذه أول وآخر مرة أعاقَب بهذه الطريقة المهينة، وازداد كرهي لمعلّمتي وللغتها.

الحارس

ا لحصة المسائية، آخر حصة، نلتقي بتلاميذ حصة الظهيرة، نتبادل الأحاديث، ونستعير ما ينقصنا من أدوات.

وصلت إلى المدرسة قبل الوقت المحدّد، وأسرعت نحو القسم، أخذت مكاني في الصفّ، وانتظرنا إشارة معلّمنا لندخل.

رغبتي في الجلوس قرب الخزانة؛ قبل أن يستولي على مكاني أحد، دفعتني للحضور مبكّرا، ولم أنك الوحيد الّذي فكّر بهذا المنطق.

فالتلاميذ الّذين ألفوا أن يقتنوا الحلويات والكعك المحلّى من الباعة أمام باب المدرسة قبل الدخول، تخلّوا عن عادتهم، بعد أن استطاعت تعاونية القسم أن توفّر لنا ما نشتهيه، وساهم ذلك في زيادة مداخيلها، الّتي كانت تصرف لاقتناء القصص الجديدة أو أدوات للأيتام وأبناء الفقراء، والفضل كلّه يعود للأستاذ عمّار.

دخلنا إلى حجرة الدرس، يتبعنا معلّمنا، بدأنا بحصة القراءة، فجأة!! وفي منتصف الحصة، سمعنا صراخا وعويلا، تلته أصوات سيارات الإسعاف والإطفاء.

ما الّذي حدث؟؟

تركَنا معلّمنا وخرج مهرولا.

لابدّ أنّه أمر جلل. احترامنا لمعلّمنا جعلنا نلزم أماكننا، حتّى النوافذ لم نقترب منها.

عاد معلّمنا شاحب الوجه، متقطّع الأنّفاس، يحوقل ويوحّد ويكرر "إنّا لله وأنّا إليه راجعون". استفسرناه، قال:

- فيما بعد.

لم نجادله، فإذا بنا نفاجأ بآبائنا وأمّهاتنا وأفراد من أسرنا يحضرون ليسألوا عنّا، زوجة عمي تصيح:

- علي! أين علي؟؟ أين أنت يا علي؟؟ أجبني.

وقفت ولوحت لها، فتنهّدت تنهيدة كبيرة، حتّى خيّل إلي أنّها كتمت أنفاسها من البيت إلى أن رأتني، ركعتْ وتنفست بعمق، ثمّ رفعت رأسها، وخاطبتني:

- إذا خرجت من المدرسة فاحضر لبيت عمك، لا تذهب إلى البيت، والدتك وإخوتك معنا. هل سمعتني.
- أومأت برأسي موافقا.

لابدّ أنّه أمر جلل، هذا الّذي حدث. لم يخبرنا أحد، لا المعلّم، ولا أفراد أسرنا، ولا المدير، حتى الحارس الّذي نعتبره بمثابة والد لنا، خذلنا هذه المرة، ولم نجده عند الباب أثناء خروجنا، ووجدنا ابنته الكبرى واقفة مكانه تنتظر خروجنا كي تغلق الباب، كانت عيناها متورمتان من كثرة البكاء. ماذا حدث؟؟

أسرعت إلى بيت عمي، وهناك سيخبرني أخي بما حدث، فقد شاهد الحادث.

في مدينتنا، مياه الصنبور لا تصلح للشرب أو الطهي، لذلك تجد صهاريج على أسطح المنازل، أو على الأقل براميل صغيرة. وكنّا نشتري الماء من الشاحنات ذات الصهاريج، والّتي يسميها الناس "الكوبة"، كانت تجوب الأزقّة والشوارع معلنة وصولها بضجيج أبواقها، الّذي تعودنا عليه. مكان تزودها بالماء لا يبعد عن مدرستنا.

ملأ السائق صهريج شاحنته، أغلقه، ثمّ انطلق ليبيع سلعته، سار قليلا نحو اليسار باتّجاه المكتب الوطني للكهرباء. انعطف يمينا، منحدرا باتّجاه العيون السفلى. وفي المنحدر يكتشفُ أنّ الفرامل معطّلة.

لا سبيل لإيقاف هذه الشاحنة المجنونة، وما زاد الطين بلّة كمية الماء الّتي زادت من سرعتها، فكّر أن يرتطم بالمنزل الموجود أمامه عند المنعطف، لكنّه خاف أن يتهدم البيت، ويموت أهله، انعطف يمينا، ليجد الشارع مكتظّا بالتلاميذ، أطلق بوقه منبها إياهم، فظنّوا أنّه يشهر سلعته، قلّة منهم لاحظوا أنّ الشاحنة تسير بسرعة، فأخلوا لها الطريق، وهربوا نحو الرصيف، وأخذوا ينبهون البقية بصياحهم.

للأسف، صدمت الشاحنة ستّة أطفال أبرياء، والحارس ضحى بنفسه لينقذ ابنته الصغرى وصديقتها، فقد قفز ودفعهما، وخلال محاولته النجاة بنفسه أصيب في رأسه، مات الحارس والأطفال الستة.

كانت حادثة أليمة أثّرت في الجميع، ومن نتائجها حرماننا من الاستراحة لبقية الموسم الدراسي.

حمدي

كـ ثرتنا سببت لنا مشكلا، تزايد عدد تلاميذ مدرستنا، فتغير استعمال الزمن، فأصبحنا ملزمين بالحضور صباحا على الساعة الثامنة بدل السابعة والبقاء في المدرسة إلى العاشرة، موعد دخول الفوج الثاني، وتبدأ حصة المساء على الساعة الواحدة، لتنتهي على الساعة الرابعة مساء، ويبقى الفوج الثاني إلى حدود السادسة وعشر دقائق مساء، كنّا نعاني في فصل الشتاء، حيث تغيب الشمس ولمّا نغادر حجرات الدرس بعد. فكان الكبار يرافقون تلاميذ السنة الأولى متى كان موعد دخولهم قبل شروق الشمس، أو ينتظرون خروجهم بعد المغيب.

تجمعنا عند باب المدرسة نصف ساعة قبل موعد الدخول، مجموعة هنا تحاول حفظ القرآن الكريم، وأخرى تنقل واجبا منزليا لم ينجز في البيت، وثالثة تلعب، وباعة يعرضون حلويات وأدوات مدرسية على عرباتهم، بعض الأمهات ينتظرن خروج فلذات أكبادهن من المدرسة.

سمعنا صراخا عاليا، تلته قهقهات وصيحات تلاميذ الحجرة المقابلة لباب المدرسة، باب القاعة مغلق، لا نرى ما يحدث، لكن يبدو أنّ المعلّم يعاقب تلميذا، بقيت في مكاني على الرصيف المقابل

للمدرسة أراقب وأسمع كغيري، عبارات استعطاف وصراخ عال، تجمع الحاضرون عند الباب الكبير لعلّهم يحظون برؤية ما يحدث.

فجأة!! رأينا جسما نحيلا يقفز من النافذة حافي القدمين، ممزّق الملابس، مغبر الشعر، ركض نحو سور المدرسة، فتح المعلّم الباب صائحا به:

- توقف! توقف! إلى أين تذهب؟؟

وتبعه تلميذان يجريان خلفه، إنّه حمدي، تسلّق السور بخفّة، وقفز إلى الشارع، ثمّ ركض بأقصى سرعة، كفريسة تهرب من مفترسها، لفّ يسارا عند الزقاق القريب المؤدّي إلى منزلهم.

ثار المعلّم، وأمر التلميذين بالعودة إلى القاعة، فيما اتّجه نحو الإدارة، علا الضجيج المكان، وانقسم الحشد إلى مجموعتين، أطفال صغار يسخرون من المعلّم، ويمدحون فعل حمدي. وكبار يدعون الله أن يلطف بهم، ويهدي أبناءهم كي لا يصيروا مثل حمدي، وينتقدون هذا الجيل من الصغار.

عاد المعلّم إلى تلاميذه. وما هي إلّا لحظات حتى دقّ الجرس، وفُتح الباب في وجهنا، فدخلنا وخرج الفوج الآخر، لم نتمكن من معرفة تفاصيل ما حدث.

في اليوم الموالي، وحين كنّا نهم بمغادرة المدرسة، رأيت أم حمدي تسحبه مكبلا بحبل، وقفت لأرى ما سيحدث، استعطفت معلّمه ليقبله في القسم واعدة إياه أنّ ابنها لن يكرر فعلته، فسحب الحبل من يدها، وجر الطفل نحو الحجرة، لم أشأ أن أغادر، انتظرت قرب المدرسة، رغم أنّ الحارس الجديد أمرني بالمغادرة، كنت أودّ التأكّد ممّا سمعته، وانتظرت أن أسمع صيحات استعطاف حمدي، لكنّني لم أسمع شيئا، بل سمعت صوت المعلّم يشرح درس الرياضيات.

تكرر الأمر ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع لم نر حمدي في المدرسة، وعندما كنت عائدا إلى البيت، استوقفني في الزقاق الّذي أسلكه لاختصار المسافة إلى البيت، فتّش جيوبي، ولمّا لم يجد شيئا ركلني، وأمرني ألّا أمر قرب بيتهم ما لم أكن أحمل إتاوة تسمح لي بالمرور بسلام، فاضطررت لتغيير الطريق.

بقي على هذه الحال مدة طويلة، إلى أن اختفي وانقطعت أخباره.

الحبّ الحقيقيّ

ر غم أنّ مدينتنا صحراوية إلّا أنها تنال نصيبها من جمال فصل الربيع وبهجته.

ونحن الأطفال نزداد حيوية ونشاطا، وتنبعث فينا رغبة لاستكشاف الجنس الآخر، للتعرف عليه، للاقتراب منه، فتكثر بيننا التحدّيات والمطاردات، نتشارك الألعاب، نحتكّ ببعضنا البعض، تفعل الطبيعة فينا فعلتها.

فتح باب المدرسة، فتسابقنا إلى أول قاعة قرب الإدارة، قاعة معلّم اللغة العربية، وقفنا في صفّ طويل، بدل صفين.

جاء المدير ووبّخنا، فما كان منّا إلا أن اصطففنا في صفين، صفّ الذكور أمام القاعة تحت أشعة الشمس وصفّ الإناث في ظلّها وبجانبها.

خرج السي عمار وطلب منّا الدخول، ففعلنا. وقبل أن يبدأ درسه، قامت إليه هدى وأخبرته أمرا، طلب منها العودة إلى مكانها، وأمرنا بالانتباه.

- أريد أن أحل مشكلا بين هدى ويوسف، هل توافقون؟؟

وافقنا.. نظرت إلى يوسف فوجدت وجهه احمر خجلا.

- نعم هدى، تفضّلي، قولي ما لديك.

نظرنا جميعنا إليها، فارتبكت وغالبتها الدموع وهي تقول:

- أستاذ! إنّ يوسف.. إنّ يوسف.. تأبى الكلمات أن تخرج من فمها، وبنبرة غاضبة صاحت: إنّه يخبر الأطفال أنّه يحبني!!

تعالت صيحات الاستهجان، وضحك بعض التلاميذ، فتدخّل المعلّم وقال:

- جيد لنسمع يوسف: ما ردك يا يوسف؟!

يوسف أين يوسف؟ كان جامدا متوهجا، كقطعة خشب تلتهمها النيران، ترتجف فرائصه، ينضح عرقا، يهم بالكلام فيحس حلقه جافّا، وتخرج كلماته كحشرجة، فيبلع الريق لعلّه يفكّ عقدة لسانه. بادره الأستاذ:

- لا تكذب، ما قالته هدى صحيح؟؟

الحب محرم علينا نحن الأطفال، وإن صادف ووقعنا في شراكه فعلينا أن نكتمه، ولا نبوح به لأحد.

الحب مرتبط بالشرف، والشرف خطّ أحمر. ومصير من يتجاوزه العقاب. هذا ما جعل يوسف يختار، أيؤكّد حبه الّذي باح لنا به، ممّا قد يعرضه لعقوبة شديدة، أم يكذب وينفي، وسيخسر معلّمه، لأنّ الجميع سيؤكّد قول هدى.

لم يتكلّم، اكتفى بتحريك رأسه، معترفا بالجرم الّذي لا يد له فيه.

- جميل!

قال الأستاذ. فتعجبنا، ومنّا من انفلتت منه همهمة استغراب. فاستطرد موجها كلامه ليوسف:

- إن كنت تحبها فعلا، فالتفت لدراستك، واجتهد وكافح، لتصبح شخصا مهما أو على الأقل لتحصل على عمل قار، وراتب معقول، وحينها يمكنكما الزواج. ليس خطأ أن نحب شخصا، الخطأ في أن نجعل ذلك الحب سبب تعاستنا وشقائنا مدى الحياة، وآنا أحبكم جميعكم.
- ألن تعاقبه يا أستاذ؟؟ تدخلت هدى.
- لا لن يعاقَب على خطإ كان يجهل أنّه خطآ، أليس كذلك يا يوسف؟

حـرك يوسـف رأسـه، وقـد بـدأت علامـات الارتبـاك والخوف تنسحب ببطء من جسده، أما هدى فلم يعجبها قرار المعلّم، وقالت:

- لكن..

قاطعها الأستاذ:

- أنت محظوظة يا هدى لأنّ شخصا يحبك، فأنا أفرح عندما أعرف أن الناس يحبونني.

توجه نحونا وخاطبنا بقوله:

- والآن أريدكم أن تعدوني أنّ مثل هذه الأمور لن تتكرر، وإن حدثت فلن تفرق بيننا، فنحن أسرة واحدة، يجمعنا حب العلم والخير.

وعدناه أن نعمل بنصيحته، وابتدأت حصة اللغة العربية.

كان كلامه جوابا شافيا لكل تساؤلاتي، وأحببت أن أصير مثله، بعد أن لاحظت تعلّق الأطفال الصغار بي، وحبهم لي.

ثقة

قـ ررت اليـوم أن أغـيّر طريـق عـودتي إلى البيـت، خرجـت مـن المدرسة، سرت إلى أن وصلت شارع الحسن الثاني، وبدل أن أنعطف يمينا أكملت طريقي مباشرة.

عـبرت الشـارع الّـذي يقسـم الحديقـة نصـفين، أكملـت باتّجـاه الصيدلية، دخلت الزقاق المحاذي لها، لحق بي عاليين، مررنا قرب سور مدرسة الدشيرة، سرنا إلى أن أصبح المستوصف عن يسارنا، وسور ثكنة الدرك عن يميننا، بضع خطوات وننعطف يمينا، لنجد شارع الثامن والعشرين من فبراير، الّذي سيقودنا مباشرة إلى حينا.

كنّا نتحدّث بصخب، فسمعنا نداء، التفتنا، فإذا بالممرض يطل علينا من نافذة المستوصف، ويطلب مساعدتنا، اقتربنا منه، فأمسك بنا، ثمّ قال:

- أحدكما سيذهب للدكّان ليشتري لي علبة أعواد الثقاب، والآخر سأمسك به إلى أن يعود صديقه.

أجبته:

- إن لم تطلقني سأصيح، لست مجبرا على مساعدتك.

بدأت أضرب يده، وأعضها. وكانت قضبان النافذة تمنّعه من الخروج إلينا، وتصطدم بها يداه بسبب حركتنا، ومحاولاتنا للتخلّص من قبضته، فما كان منه إلّا أن أطلقنا، وبدأ يتوسل مدّعيا أنّه يريد طهو غذائه، ولا يمكنه إغلاق المستوصف أو مغادرته.

لا أدري لم كرهت مساعدته، رغم أنّني أحب مساعدة الناس. أغرت الفكرة عالِيين، واعتبرها فرصة للحصول على درهم أو نصفه.

انصرفت وتركتهما يتفاوضان، وسمعت الممرض يخبر صديقي أنّه لا يثق به، ويخاف أن يأخذ النقود ويهرب، فاقترح أن يترك عنده محفظته كضمان وألّا يستردّها إلّا إذا عاد ومعه علبة أعواد الثقاب أو المال، وبدأ صَوتهما يتلاشى، فالتفتّ ورأيت صديقي يركض حافيا باتجاه الدكّان، ويد الممرض تسحب المحفظة إلى داخل المستوصف، وتختفي.

انعطفت يمينا، سرت وجدار الثكنة، التحق بي صديقي وقد اقتربت من نهايته، فتح كفّه أمامي فلاحت لي قطعة معدنية كبيرة من فئة خمسة دراهم، أغرتني بسؤاله لكنّني لم أفعل، أحكم قبضته عليها، وقال بغضب وحسرة:

- لقد اغتصبني ابن الزانية.

توقّفت أتأكّد ممّا سمعت، كررها وطلب مني ألّا أخبر أحدا، فوعدته.

أكملنا طريقنا، إلى أن وصلنا حيث سنفترق، عبر الشارع نحو بيتهم الّذي كان أمامنا، في حين انعطفت يسارا مكملا طريقي ومفكّرا في مصير هذا اليتيم.

انتشر الخبر بعد ذلك بأيام، فقد اعترف لأمه حين وجدت معه ذلك القدر من المال، واتّهمته بسرقته، وهي بدورها أخبرت جاراتها، تشتكي غدر الناس والزمن، وهكذا انتقل الخبر في الحي بأكمله.

أما عاليين فقد صار لعبة بأيدي بعض المراهقين والشبان، إلى أن اختفى وأسرته الصغيرة.

ثمن الحرّيّة

فصل الصيف هو حبيبنا نحن الأطفال، ففيه نتحرر من المدرسة ومتاعبها، لكن هذا الصيف مختلف.

سافرت أمي، ومعها أختاي الكبرى والصغرى، بقينا أنا وأخي مع والدي، الّذي يعمل في مخبزة عصرية، ولم يسمح له ربّ العمل بالاستفادة من عطلته السنوية، والسبب هو تجديد المخبزة، ووالدي خاف على تقاعده الهزيل.

قضينا معه اليوم الأول في البيت، وفي اليوم الثاني أخذنا معه إلى المخبزة، وهناك تناولنا أشهى أنواع حلويات الكريمة مع ألذّ العصائر.

بعد ذلك اتّجهنا إلى بيت قريبة له، تناولنا وجبة الغذاء، وقبل أن يغادر همس في أذن زوج قريبته، الّذي كان يومئ برأسه موافقا، صافحه ثمّ غادر، وتركنا.

كانت فرحتنا كبيرة، تحررنا من المدرسة، ومن سلطة أبي، ولكن هل سيعود؟؟ أم أنّنا سنبقى هنا؟ ولماذا سافرت أمي أساسا؟؟؟

البيت واسع، يوجد في العيون العليا، يطل على الأحياء الموجودة في العيون السفلى، لكن حينا بعيد ولا أراه.

الـرياح هنـا قويـة لا تتوقّـف، وفي المسـاء أصـبحت باردة، وملابسي كلّها في البيت، فاخترت الاختباء داخل المنزل.

ذهبت إلى غرفة الضيوف القريبة من الباب، ضغطت الزر، لكن المصباح لم يستجب، ربّما هو تالف، سأجرب المرحاض، فلا يمكن أن يكون مصباحه تالفا...

الكهرباء مقطوعة، ماذا سأفعل هنا وحدي؟ كلّهم في الخارج ينتظرون أذان المغرب، تلك عادة سكّان المدينة، حتى في حينا نتجمع خارج البيوت في انتظار صلاة المغرب، موعد دخول الأطفال.

جلست معهم مرغما، بدأت حرارة جسمي تنخفض، واستجاب جسدي وأخذ يرتجف، لعلّه يستعيد بعض الدفء، لا أحد انتبه إلي، كانوا يتحدّثون، وكنت أدعو الله أن تغيب الشمس بسرعة لندخل إلى البيت.

حل الظلام ولم يأت والدي. دخلنا إلى المنزل، قام السيد أحمد بإشعال شمعة وسلّمها لزوجته، فأخذتها إلى المطبخ لتعدّ لنا وجبة العشاء.

أشعل شمعة أخرى ووضعها على المائدة الموجودة في مركز الغرفة، تحلّقنا حولها، وبدأنا نلعب.

بين الفينة والأخرى تأتي فراشة لتداعب لهيب الشمعة فتلقى حتفها، أو تحرق جناحيها فتسقط على الحصير، ثمّ تبدأ محاولاتها اليائسة للعودة إلى الأجواء، واستعادة قدرتها على الطيران. اقشعر بدني وأنا ألمح جيشا من النمل الأحمر الكبير، يتجمع حول الفراشات يسحبها نحو مستعمرته! كل نملة تحمل فراشة، وكأنّها تحمل حبة قمح.

حتى الصراصير لم تجرؤ على مزاحمة النمل على الأرض، واكتفت بمشاهدتنا من السقف أو أركان الغرفة، وبين الفينة والأخرى يطير أحدها باتّجاه الحائط المقابل، وقد يضل طريقه فيرتطم بنا، لكنّني تمالكت نفسي وأخفيت رعبي.

تناولنا وجبة العشاء، وأحضرت لنا القريبة فراشنا، أرتنا مكان نومنا. الّذي كان عبارة عن غرفة واسعة لا فراش فيها غير ما تسلّمناه، يبدو أنّهم انتقلوا للتو إلى هذا البيت، ولم يكملوا تجهيزه بعد.

ضوء الشمعة الخافت زاد الأمر تعقيدا، تجنّبت الدوس على النمل معتقدا أنّ ذلك يثيره، وفي نفس الوقت حرصت أن أعدّ فراشي لأستريح بعد عناء يوم صيفي طويل.

اختار أخي الركن الأيمن من الغرفة، نشر اللحاف الأول، وضع الوسادة، ثمّ فتح اللحاف الثاني، وجلس وقد غطّى قدميه إلى الركبتين، نظر إلى الوسادة ليقيس المسافة، عدّل جسمه، وارتمى برأسه على الوسادة ساحبا الغطاء، فاختفى جذعه وجزء من رأسه.

تعجبت من تصرفه! كيف لم يكترث لكل هذه الحشرات؟! طلب مني أن أطفئ الشمعة وأنام، هه! أنا خائف والشمعة موقدة! كيف أفعل إن ساد الظلام؟؟؟؟

اخترت وسط الغرفة، لأنّني لاحظت أنّ جميع الحشرات تسير بجانب جدران الغرفة، وتتجنّب الوسط، بسطت الفراش، طويت اللحاف الثاني نصفين، وكقطعة لحم في لجة، دخلت بين الجزئين، وأخذت الجهة المفتوحة لففتها تحت جانبي الأيمن، ثمّ رفعت رجلي وأحكمت الضغط على طرف اللحاف.

أطفأت الشمعة، وأغلقت علي تابوتي، وبعد أن شعرت بالدفء، استسلمت لنوم لذيذ وعميق. فأصبحت منذ هذه اللحظة لا أنام إلّا داخل تابوتي، وإن لم أفعل، تعذبني آلام الظهر والمفاصل.

في الصباح، زارنا أبي يحمل حقيبة بها ملابسنا، وكعادتي، استرقت السمع لأكتشف أنّنا سنبقى هنا إلى حين عودة والدتي، الّتي سافرت لأن جدّي توفي.

بدأت أعتاد ضوء الشموع، فالحي كلّه محروم من الكهرباء، حتى البقعة الأرضية الكبيرة الّتي في الأسفل، تتم تهيئتها لتصبح حي المسيرة، والبناء البعيد الّذي يلوح من أعلى، والّذي زرته مرة واحدة لأسبح في الصهريج الكبير بجانبه، هو مشروع مستشفى الحسن بالمهدي.

قريبة والدي تخشى أن يحدث لنا مكروه، وكانت تمنعنا من الابتعاد عن البيت، وكنت أتسلّل وأهرب فور استسلامها للنوم خلال الظهيرة.

كان يثيرني وجود مخلّفات حرب التحرير: رصاصات فارغة، وأزرار الزي العسكري المعدنية، الّتي نُقشت عليها النجمة الخماسية، وكنت أجد أحيانا قطعة القماش الّتي تعلّق على الكتف، وتبين رتبة الجندي. كنت أتساءل عن مصير الرجال.

ألفت منظر الحشرات، وأصبحت البقع الحمراء على الجلد، والناتجة عن لسعات هذه المخلوقات شيئا عاديا، بل مصدر فخر. بل

كنّا نضحك حين يستفيق أحدنا وقد تورم جفنه أو شفته، وتحول إلى مخلوق من عالم أفلام الرعب، فيجيبنا ضاحكا إن سئل ما به؟

- لا شيء إنّها مجرد قبلة حب.

كنّا نزور عائلة السيد أحمد في الحي المجاور، والّذي لا يبعد سوى مئات الأمتار، نسير جميعا في ظلام الحي، غايتنا نحن الصغار مشاهدة الأفلام على التلفاز، كان تلفازهم يعمل بالبطارية، كانت هذه الزيارات أسبوعية، وتميزت بوجبة عشاء خاصة، قطع البصل والطماطم المقطّعة على شكل مربعات صغيرة، يضاف إليها قطع السردين المعلّب، كانت لذيذة

تعلّمت في هذه العطلة أنّ لكل شيء ثمّنا، مقابل الحرية هناك خوف، ومقابل الأمان هناك قمع، وتعلّمت التغلّب على مخاوفي، أو التأقلم معها إن غلبتني، وأنّ السعادة تجلبها الأشياء البسيطة.

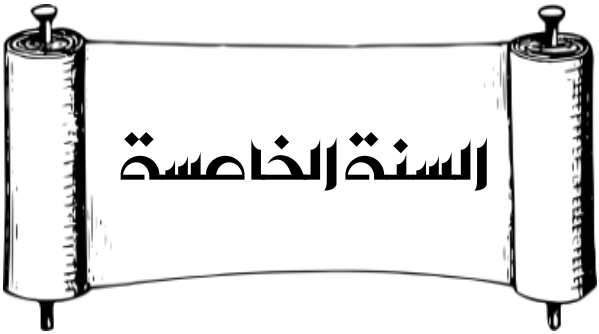
السنة الخامسة

تسرّب

كانت ساحة المدرسة مليئة بأوراق ملونة، تداعبها الرياح، انحنيت والتقطت واحدة، قلبتها وبدأت أقرأ ما فيها.

إنّه إعلان عن مدرسة جديدة، هي الأولى من نوعها في مدينتي، لديهم نقل مدرسي، واللغة الفرنسية أولويتهم، كما ينظّمون رحلات، ومسابقات فنّية ورياضية، معلّموهم أكفاء، ومقابل هذه الامتيازات تدفع الأسرة خمسمائة درهم عن كل طفل، أول مدرسة خصوصية في مدينتنا. هه! أصبح العلم سلعة تباع وتشترى!

وجوه عديدة اختفت، كل أسرة لديها دخل معقول سجلت أبناءها هذا الموسم في مدرسة السندباد.

عادل اختفى، وكذلك منى وحسناء، يوسف أيضا لم يظهر، ونفس الشيء بالنسبة لجمال، حتى الّذين بقوا، مثل أسماء وحسن ومصطفى ونادية ومارية، أشكّ أن يستمروا معنا، لأنّ بعض المعلّمين سجلوا أبناءهم في هذه المدرسة الخاصة، بقيت المدرسة لنا وحدنا نحن الفقراء فقط.

دخلت قاعة السي محمد المجاورة للإدارة، حيث سندرس اللغة العربية وموادّها: تاريخ وجغرافيا وتربية إسلامية، والعلوم التي يسمونها "الأشياء"، أخذت مكاني.

انتظرناه بينما كان يحادث زملاءه في الساحة، وعندما تأخّر، انتبه إلى وجودنا بسبب ضجيجنا، دخل على عجل، ألقى التحية، وقلب جناح السبورة السوداء، لتظهر لنا لائحة الكتب واللوازم المدرسية، نقلناها إلى أوراقنا.

انحنيت على ورقتي أخطط أشكالا لا أدري ما هي، بينما تفكيري منصب على مباراة مساء اليوم ضد فريق الحي المجاور، ومن أين أحصل على ثلاثة دراهم، المقابل الّذي علي دفعه نظير مشاركتي في الفريق، في حين شرع الآخرون في الحديث بصخب.

حررنا معلّمنا طالبا من العودة صباح الغد، فانتقلنا إلى الحجرة المجاورة المخصصة للغة الفرنسية والرياضيات.

عند الباب وقف الأستاذ عبد الله، وكنّا ننحني كي نطبع قبلاتنا على يده قبل أن ندخل، وجدنا اللائحة مكتوبة بخطّ واضح وجميل باللغتين العربية والفرنسية، نقلناها هي الأخرى، وحين انتبه إلى أنّنا أنهينا مهمتنا، طلب منّا المغادرة والعودة في الصباح.

بدأ العام الدراسي الجديد، المتوسط الثاني كما تسميه الوزارة، والشهادة كما يعرفه عامة الناس، ومن اسمه يرتعب الأطفال، فهو خاتمة المرحلة الابتدائية، ونحن مطالبون باجتياز امتحان نهاية السنة بنجاح إن أردنا الانتقال إلى الإعدادية.

لا أشكّ في قدراتي، ولكن حملا ثقيلا انضاف إلى أحمالي، فأختي الصغرى التحقت بالمدرسة هذا الموسم، وعلي أن أوصلها إلى المدرسة، أو أعيدها إلى البيت، حسب جدول حصصي، لأنّ أخوي يدرسان في المدرسة الإعدادية، وجدولي حصصهما مشحون، وتوقيتهما مخالف لتوقيتنا، علي أن أقبل هذه المهمة.

كنت أكره القيام بها مساء السبت، لأنّها كانت تصادف عرض سلسلة زورو ضمن برامج والت ديزني، وأفوت نصف الحلقة أو الحلقة كلّها، حسب سرعة مشي أختي.

شعير

بدأنا عامنا هذا مع معلّم غريب الأطوار، يحب كثيرا أن يتفاخر بالبطولات والمغامرات، الّتي عاشها في طفولته.

وكنّا نحب أن يحكي لنا السي محمد قصصه، رغم علمنا أنّه يرتجلها، كان يضع نظّارات شمسية داخل حجرة الدرس، استغربنا لتصرفه هذا، ولكنّه كان يخفي بهما عينيه، حين يغطّ في نوم عميق في حضرتنا.

كانت فترات المساء شاقّة عليه يغالب النوم، ولكنّه في النهاية يستسلم له، يأمرنا أن نأخذ القراءة أو القرآن الكريم وأن نقرأ بالتناوب.

يجلس على كرسيه، يبعده قليلا عن الجدار خلف مكتبه، يدفع المسند بظهره، فيميل الكرسي إلى أن يلتصق بالجدار، يضع القدم الأولى على المكتب، ويضع الثانية عليها، يتّكئ بكتفيه ورأسه على الجدار، ويستسلم تدريجيا للنوم.

أحيانا تكفيه غفوة، وأحايين كثيرة يغطّ في نوم عميق، لدرجة أنّنا نسمع شخيره.

لم يكمل معنا السنة الدراسية، ولم يطلعنا أحد عن السبب، هل انتقل؟ أم تمّ إعفاؤه؟ أم تقاعد؟ أم أنّه مات؟ لست أدري.

جاءنا معلّم شاب بعد عطلة الدورة الأولى، اليوم الثاني من يناير، يبدو أنّه حديث العهد بمهنة التدريس، نظرا لصغر سنّه.

لحيته الشقراء المائلة للحمرة، وبشرته الناصعة البياض تدلّان على أنّه من أبناء شمال المغرب، حاول في البداية أن يكون حازما، لكن ضعفه أمام البنات جعله يتغير ويلين.

يعشق أن تحيط به الفتيات، وأن تتقربن منه، وفي المقابل يقمع الفتيان، لقد أصبح الذكر المسيطر، تعجبه كلمات المديح، خصوصا إن تفوهت بها أنثى.

كان متوسط القامة، مترهل العضلات، حديث العهد بالتدين، وربّما لا يملك ما يكفي من المال لحلق وجهه كل يوم.

لم نتأقلم مع طريقة عمله، فقد تأثّرنا كثيرا بطريقة السي عمار.

عاد التصنيف، وعاد العقاب، ومعه السب والشتم. يتساهل في كل شيء إلّا حفظ القرآن الكريم، خلال حصص القرآن يتحول إلى صخرة صماء بدون مشاعر، شيء واحد قد يشفع لك: هو أن تكون أنثى.

كنت أجلس في الطاولة الرابعة في الصفّ الأيمن، وبقربي صديقي صلاح، طلب منّا المعلّم أن نأخذ كتب التربية الإسلامية، ونقرأ جزءا من سورة الرحمن بالتناوب.

مددت يدي إلى المحفظة، أخرجت كتابي، وفتحته على الصفحة الخاصة بدرس القرآن الكريم، أردت أن أغلق محفظتي فلاحظت وجود ورقة ملفوفة تحتوي على شيء ما، فتحتها بحذر وصديقي يراقب.

لقد دست أمي بعضا من الشعير المحمص في محفظتي، طلب مني صلاح قليلا من الشعير، لم أبخل عليه، وقسمت معه ما جادت به والدتي.

وضعت حصتي في جيبي، ودون أن أشعر، بدأت في التهامها ولم أنس وضع أصبعي على الكلمة الّتي وصل إليها القارئ من زملائي، قراءة بعد قراءة، لم أمل من المضغ ومن المتابعة، حتى وقف المعلّم عند رأسي:

- ما هذا؟؟
- شعير محمص يا أستاذ.
- لماذا تأكله داخل حجرة الدرس؟
- أحسست بالجوع.

- أين وصل زميلك الّذي يقرأ؟؟

أريته بأصبعي الكلمة الّتي توقف عندها. سأل زملائي فأكّدوا له أنّها هي.

لم يشأ أن يدع الأمر يمر بسلام، طلب منّي أن أقف، ففعلت، اتجهت إلى الخلف يدفعني بكرشه، حتّى أوقفني الجدار، أمرني أن أستظهر سورة الرحمن كاملة.

لا مشكلة حفظتها منذ سنتين، حين كانت أختي تستعدّ للامتحان، كنت أحفظها مرغما، فقد كان صوتها وهي تقرأ القرآن محاولة حفظه يزلزل البيت، وأحيانا أذكّرها أو أصحح لها.

بدأت استظهار السورة، وأنا على يقين أنّني أفلتت من العقاب، فيما كان يستشيط غضبا، رفعت رأسي لأرى ملامح وجهه وليتني لم أفعل.

كان بيده خرطوم يستعمل لربط قنّينة الغاز بالفرن أو الموقد، رائحة الغاز الكريهة تملأ المكان، التقت عيني بعينه، فرأيت الشرر يتطاير منهما، كانت نظرتي بمثابة إذن له ليفعل ما يريد، فرفع الخرطوم قائلا:

- إلى ماذا تنظر؟ ألّا تستح؟

حميت رأسي بكلتا يدي، وتركت ظهري وكتفي عرضة لوابل من الضربات المتتالية.

شفى غليله، وطلب مني العودة إلى مكاني. لست أدري ما سبب هذا العقاب، وبدل أن أبكي كتمت الضحك رغم أنّني أتألّم، جلست قرب صلاح، أراد أن يواسيني، فابتسمت له، ممّا دفعت للتراجع، وتتبع قراءة زميلتنا.

نظرت إلى المعلّم ببطء وحذر، فوجدته مستلقيا على كرسيه خلف مكتبه، يبتسم في وجه فاطمة.

عندما التقيته في دكّان الخياطة خاّصته، في سنتي الأولى في مهنة التعليم، سألته، فلم يجبني، بل طأطأ رأسه واعتذر، خجلت، واعتذرت وأنا أغادر دكّانه، وندمت أنّني أخبرته.

الإملاء

ا لسي عبد الله معلّم حازم، يعمل بجدّ، تلاميذه متمكنون من اللغة الفرنسية، يدرس المستوى الخامس منذ سنوات، طريقته في الشرح تجعل عقولنا الصغيرة تلتقط الدروس بسلاسة ويسر.

يعرف والدي، درس عنده أخواي اللّذان سبقاني للمدرسة. إن كان سيعاقب أحدنا نعرف ذلك، فلديه طقوس خاصة، ينزع الساعة من معصمه، ويضعها والنظارات على المكتب، ثمّ يطوي كمي قميصه قبل أن يستعمل الخرطوم الأحمر الّذي يحبه أغلب المعلّمين.

أنهينا حصة الرياضيات، لدينا حصة الإملاء، النص مكتوب على السبورة بخطّ واضح جميل ومقروء، قرأناه، وشرحنا كلماته المبهمة، فهمنا أفكاره، فأعطانا مهلة لتذكّره، أو بالأحرى تذكّر رسم كلماته، قلب السبورة، وتدربنا على الألواح، أنهينا التدريب، أرانا النص مرة أخيرة، قلب السبورة وشرع في الإملاء جملة جملة.

كان يملي ببطء شديد، ويكرر مرات ومرات، وعندما أنهى، طلب من متفوقين اثنين أن يقرآ ما كتباه، فكنّا نتدارك أخطاءنا، فاصلة هنا، ونقطة على هذا الحرف، وعلامة الجمع لهذه الكلمة ...

أنهينا الإملاء، طلب منّا أن نأخذ الأقلام الخضراء لتصحيح الأخطاء، قلب السبورة لنقارن عملنا بما هو مكتوب أمامنا.

بحثت في دفتري عن الأخطاء فلم أجدها، كررت العملية أكثر من أربع مرات، كنت أقارن الكلمات حرفا حرفا، لم أجد أي خطإ.

أغلقت دفتري في انتظار إنهاء زملائي للتصحيح، رفعت رأسي فوجدته ينظر إلي.

أشار بسبابته إلي، فحملت إليه دفتري، وأنا متأكّد من خلوه من الأخطاء، أخذ قلمه الأحمر باحثا عن خطإ نسيت تصحيحه.

توقّف عند كلمة ووضع تحتها خطين أحمرين، وضع قلمه على المكتب، ووضع أيضا ساعته ونظارته، وتناول الخرطوم الأحمر.

ناولته يدي، أربع ضربات متتالية، كل يد ضربتان، العدل حتى في العقاب.

أخذت دفتري، وعدت إلى مكاني، فتحته مرة أخرى، جيد باللغة الفرنسية، وتسعة من عشرة مكتوبة بخطّه الجميل بجانب إنجازي.

نظرت إلى السبورة، فلمحت أسماء واقفة ترتجف أمام المعلّم، لم تصحح هي الأخرى خطأها، رحت أبحث عن الكلمة الّتي أخطأت في

كتابتها ولم أصححها، فإذا بالمعلّم يدفع الكرسي للخلف، يبدو أنّ أسماء ستعاقَب، توجه معلّمي إلى السبورة، نظر إلى الكلمات ثمّ إلي، وأشار بيده يدعوني للالتحاق به، قمت على عجل، وأسرعت إليه، قال:

- لماذا لم تخبرني أنّني أخطأت في كتابة هذه الكلمة؟؟؟

طأطأت رأسي خجلا . فأنا لم أتأكّد من الكلمة بعد، لقد استهواني منظر أسماء وهي ترتجف من الخوف، وتحكّ يديها استعدادا لتلقّي الضربات.

خاطب باقي التلاميذ:

- ضعوا أقلامكم وانتبهوا! هذه الكلمة خاطئة.

صححها، وطلب مني أن أعود إلى مكاني، ففعلت، صححت الخطأ، وقبل أن أغلق دفتري، وجدته واقفا بجانبي، انحنى على الدفتر، شطب تسعة، وكتب باللغة الفرنسية ممتار عشرة من عشرة.

نسيت أنّني عوقبت على خطإ لم أرتكبه. وفرحت بالنقطة الّتي حصلت عليها.

الجمل

- خ ذوا ورقة، وأنجزوا التمرين، ولا تنسوا كتابة أسمائكم.

من أين سآتي بالورقة؟؟ التفتّ يمينا وشمالا، ثمّ إلى الخلف، لعل أحد زملائي ينقذني ويعطيني ورقة، رجوت حنان وسلوى اللّتان تجلسان أمامي، لا فائدة، أصبح الجميع أنانيين، لا يحبون أن يتفوق عليهم أحد، يحسدون ويغيرون من بعضهم البعض.

فتحت محفظتي، أخرجت دفتر الامتحانات، نظرت إليه بحسرة، ومزقت ورقة من أوراقه الخمسين.

معلّم العربية دائما ما يفاجئنا بمثل هذه التمارين، فبدأ دفتري يصاب بالهزال، كان يعاني في صمت، يتضاءل شيئا فشيئا، عكس دفاتر زملائي الّتي كانت سمينة.

دنت الدورة الأولى من نهايتها، واقترب موعد الاطّلاع على نقطنا، كنّا نحمل دفاترنا إلى المعلّم في مكتبه، يسألنا بعض الأسئلة، ثمّ يدون النقطة على الدفتر، النقطة الّتي ستحدد مصير كل واحد منّا.

ينهض أحدنا وكلّه حماس وحيوية، ثمّ يعود خائبا يجر قدميه والحسرة بادية على محياه، أو تراه عصفورا يطير من الفرح نحو مقعده.

أمّا الّذين ينتظرون دورهم، تبدو على وجوههم علامات الترقّب والخوف من المجهول.

كنت واثقا من نفسي، لغة الضاد حبيبتي، ولن تخذلني، أحببتها مذ عرفتها، فبادلتني الشعور، ومكّنتني من أن أكون ما أنا عليه، أنتقي منها ما يصلح ليترجم مشاعري وهمومي، نجاحاتي وخيباتي، هواجسي وطموحي ...

نهضت وكلّي ثقة في نفسي، أجوبتي صحيحة مائة بالمائة، لا أثر للون الأخضر في دفتري، وضعته أمام معلّمي، وجلست أنتظر أسئلته عن الدين وعن تاريخ المغرب وجغرافيته وكيفية حبه، وعن أجسام الحيوانات والإنسان، وعواصم العالم وقاراته ...

- ما هذا الدفتر؟؟

كان سؤاله صادما، شرحت له أنّي استعملت أوراقه في الواجبات السابقة، لأنّني لا أملك غيره، ولا مال لدي لأشتري علبة أوراق مزدوجة أو دفترا آخر.

لم يتقبّل أن يصير دفتري نحيفا، وأن تبقى فيه عشر ورقات فقط.

فقرر أن تنزل نقطتي من تسعة إلى خمسة، أربع نقط كاملة، بهذا التصرف أعطاني مبررا لأكرهه، فلا ذنب لي إن كنت من عائلة فقيرة.

تمنّيت حينها لو درسنا المعلّم عمار هذه السنة، ما كنت لأتعرض لمثل هذا الظلم.

عدت إلى مكاني وقد اغرورقت عيني بالدموع، عانقت دفتري النحيل واضعا ذراعي على الطاولة، وضعت جبهتي على الدفتر، وبكيت بحرقة حتى بلّلت غلافه، كدت أستغرق في النوم، لولا أني سمعت غزلان تقول:

- لا عليك. سينتقم الله منه.

كلماتها كانت ثلجا أخمد نار الحقد في صدري، مسحتَ دموعي، وأدخلت دفتري إلى مكانه، ودعوت الله.

مرت الأيام، وجاءت كما هي العادة احتفالات عيد العرش، شاركنا في الاستعراض أمام شخصيات المدينة، وكان معلّم العربية هو مرافقنا والمسؤول عنّا.

تجمعت حوله الفتيات يحدثنه ويسألنه عن شتى المواضيع، وكان يضحك بأعلى صوته، غير آبه بباقي التلاميذ الّذين يرافقونه.

غير بعيد كنت أقف مع أخي، فسمعت غزلان تسأله عن قراره في حقّي، ولماذا نقص أربع نقط كاملة من نقطي؟ أجابها بأنّني أعمل

بجدّ وأنّ عملي ممتاز، لكن ينطبق علي المثل الشعبي المغربي: "اللي حرث الجمل دكّه".

منذ تلك اللحظة قررت غزلان أن تزودني بالأوراق والدفاتر متى احتجتها.

عيد الميلاد

م ن هذا؟؟ هل هو معلّمنا؟؟ طبعا أنّه هو!! لقد تخلّص من لحيته، يبدو أنه تلقى راتبه الأول، لقد مر نصف الموسم الدراسي، وفي هذه الفترة يبدأ المعلّمون الجدد بتلقّي رواتبهم.

يبدو أصغر سنّا وأكثر شبابا، كما أنّ ابتسامته أصبحت أكثر إشراقا، تعالت كلمات المديح من الفتيات اللّائي تحلّقن حوله:

- صرت جميلا أستاذ!
- عليك أن تحافظ على هذا المظهر وتتخلّص من اللحية!
- تبدو وسيما هكذا!
- تبدو أصغر سنّا!!

كانت كلماتهن تشعره بالغرور، مضت نصف ساعة، كنت حينها منهمكا بالرسم على ورقة من الأوراق الّتي أهدتني إياها غزلان. لا زلت أحاول رسم الدوق فليد، يسهل رسمه، وهو بزيه الحربي، لكن بعض التفاصيل تهرب من ذاكرتي، فلا أتمم رسم دايسكي.

قراءة على عجل لتدارك الوقت الضائع، فدرس لغوي، ثمّ قرآن كريم. انتهت الحصة.

ارتحنا لمدّة ربع ساعة، مدرستي لم تتغيّر كثيرا، نفس الساحة، نفس القاعات، مسكن المدير تمّ طلاؤه حديثا، وتمّ إصلاح صنابير دورات المياه الخاصة بنا.

دقّ الجرس معلنا انتهاء فترة الاستراحة، اصطففنا أمام قاعة السي عبد الله، دخلنا مثنى مثنى بعد إذنه.

أخذنا أماكننا، بدأنا بالحساب الذهني، عمليات القسمة والضرب ذهنيا، تلتها خمس دقائق لجدول الضرب باستعمال الألواح، مرت على البعض منّا كأنها خمس ساعات، نال المخطئون حصتهم من الضرب.

أصبح الأمر عاديا بالنسبة لنا، تسمع صيحات بعض تلاميذ الأقسام الأخرى، لا أحد يبالي. صارت لدى أغلبيتنا قناعة بأن الضرب يقومنا.

نبّهنا معلّمنا إلى أنّ درس اليوم يحتاج تركيزا وانتباها كبيرين، شرح لنا كيف تُحسب النسبة المئوية، ونسبة الفائدة...

أنجزنا التمارين، ثمّ صحّحنا أخطاءنا، أنهيت عملي، وأغلقت دفتري، وفي انتظار أن ينهي الآخرون، تجولت ببصري في حجرة

الدرس، بدأت من الحائط قرب الباب، أتنقّل بين الصور، والكلمات، قواعد اللغة والرياضيات.

التفتّ يمينا، وبدأت بالجدار الداخلي من الخلف، إلى أن التقت عيني بعين المعلّم، كان ينظر إلي منتظرا انتباهي له، أشار بأصبعه، فالتحقت به حاملا دفتري ظانّا أنّه سيصححه، وضعته مفتوحا أمامه، أمرني أن ألفّ وأدنو منه، همس في أذني:

- أخبر أباك أنّ عيد ميلاد ابنتي غدا.

كررت جملته كي لا أنساها... ما هو عيد الميلاد؟؟ وما دخل والدي؟؟ عدت إلى مكاني والحيرة تملؤني. أول مرة يقترب تلميذ من كرسي هذا المعلّم، ترى ما السبب؟؟ تملّك الفضول زملائي.

صرت قادرا على القراءة باللغة الفرنسية، تنقصني فقط بعض الطلاقة، مرت حصتي القراءة والتعبير بسرعة أو هكذا خيل إلي، ونحن عند السبورة ننتظر إشارة معلّمنا كي ننصرف، نظر إلي فابتسمت، وهززت رأسي أطمئنه أنّني لن أنسى.

وصلت إلى البيت، الجميع ينتظرني، قبلت رأسي والدي وحييت أخوتي، غسلت يدي، وجلست إلى المائدة أزدرد الطعام بنهم، فقد بلغ الجوع مني مبلغه.

أنهيت وجبتي، وانتظرت والدي عند عتبة الباب، أخبرته حين كان مغادرا، تبعه أخواي يحملان أدواتهما باتجاه الإعدادية.

وانتظرت إلى أن نامت والدتي، فغادرت البيت نحو ساحة الكنيسة لعلّي أجد أحدا من أقراني أقاسمه اللعب، أو أكتفي بتسلّق أشجار الحديقة المجاورة لها، وأدخل في لعبة كر وفر مع حارسها.

في المساء، سألت أختي عن عيد الميلاد، فضحكت متعجبة، ثمّ شرحت لي معناه، دخل علينا والدي وطلب مني أن أخبر معلّمي أنّه لا داعي لأن يزعج نفسه بالحضور، لأنّ المخبزة سيتكفّل بإيصال طلبيته إلى البيت، والدفع عند التسليم.

في صباح اليوم الموالي، أخبرت معلّمي هامسا في أذنه، وزدت من حيرة زملائي، خاصة حين ربت بيده على رأسي، وشكرني بصوت عال، بل وأخرج قطعة حلوى وناولني إياها. دسستها في جيبي فرحا، وعدت إلى مكاني مزهوا.

حصة الرياضيات، الألواح مرة أخرى، اعتدنا هذا النشاط كل صباح. مهارة الحساب الذهني تحتاج تركيزا وسرعة، وبعض التلاميذ لا يطيقون الضغط، خمسة أخطاء تعني العقوبة، وما إن تخطئ الخطأ

الأول حتى تتوالى الأخطاء تباعا، وتسمع المعلّم يأمرك أن تضع لوحتك، وتستعدّ للعقاب.

ذاكرة معلّمنا قوية، يتذكّر عدد الأخطاء الّتي ارتكبها كل واحد منّا، كنّا اثنين وأربعين تلميذا، ولم يخطئ قطّ في ذلكن وحين يجادله أحد منّا، يذكّره بالأخطاء الّتي ارتكبها.

جاءت لحظة العقاب، بحث عن الخرطوم الأحمر فلم يجده، لابدّ أنّ أحدنا تخلّص منه، ورماه على سطح الحجرة، أو تمّت سرقته من مكانه قرب السبورة حين اصطففنا أمامها بالأمس.

نزع ساعته، وطوى كمي قميصه، ثمّ وضع نظاراته على المكتب، وناداني، قمت مسرعا، ظننته سيرسلني عند معلّم اللغة العربية لأحضر أداة العقاب، دنوت منه، فانحنى هامسا في أذني:

- تعرف منزلي؟؟

هززت رأسي إيجابا، فاستطرد:

- اذهب وأخبر زوجتي أنّني أحتاج خرطوما أحمر.

خرجت راكضا من حجرة الدرس، فتحت الباب الخلفي للمدرسة، والّذي صرنا نستعمله في الدخول والخروج بعد حادثة السنة الماضية.

جريت باتجاه منزل معلّمي، طرقت بابه، ففتحته فتاة جميلة، تبعثرت أفكاري حين رأيتها، وارتبكت قبل أن أخبرها بطلب والدها.

حملت الخرطوم وعدت إلى المدرسة، أدخلت يدي من الفتحة الصغيرة، سحبت المزلاج، دفعت الباب ودخلت، استدرت وأغلقته، مررت بغرفة العون، لمحته يعدّ الشاي، طرقت باب حجرة الدرس، وانتظرت إذن معلّمي، أشار بيده، سلّمته الأمانة، ثمّ جلست في مكاني، وعيون متعجبة ترمقني.

من يومها بدأ بعض المتملّقين بالتقرب مني، وأصبح البعض يخافون مني، والآخرون يحترمونني، رغم أنّني ومعلّمي لا نحب الوشاة.

مسقط الرأس

صـ ـلاح طفـل مختلـف، رغـم أنّـه يجلـس في الخلـف مـع المنبـوذين والفاشـلين، إلّا أنّـه يريـد تطـوير نفسـه، يرغـب في التعلّم، لكـن فهمـه ثقيل، أشرح له مرارا كي يتمكّن دماغه من هضم ما أقول، وبعد مدّة وجيزة ينسى، ساعدته كثيرا، وبدأ يتحسن، لكنّني تأخّرت في مدّ يدي له.

أصبحنا لا نفترق، ابن الخباز وابن الإسكاف.

كـان عطوفـا، رقيـق المشـاعر، شـعره لـولبي أسـود، يغطـي جبهتـه وحاجبيـه، عينـاه جاحظتـان، تخفيـان أسـرار الليـل، خـدّاه ممتلئـان يضـغطان علـى أنـف ضـخم، فمـه كبـير، ووجهـه دائـري، هـو بـنفس طـولي، لكنّـه ممتلئ الجسـد، يشـاركني مقعدي عند أستاذ اللغة العربية منذ مدّة.

كانـت حصـة القـراءة، اسـتمعنا لقـراءة المعلّـم، والكتـب مغلقـة. سألَنا عن الفكرة العامة للنص، وأجبناه. فتحنا كتبنا، وقرأ مرة ثانية، وكنّا نتتبع الكلمات بأصابعنا الصغير، طرح سؤالا يختبر به فهمنا، حبه للفتيات جعله يختار واحدة لتقرأ.

بدأ يمر بين الصفوف، يراقب أصابعنا تطارد الكلمات، وبين الفينة والأخرى يطلب من القارئ أن يتوقف، ليشرح مفردة صعبة، يدون الشرح على الجانب الأيمن للسبورة، وكنت أستغل الفرصة لأشرح لصلاح ما لم يفهمه من الكلمات الأخرى، وبينما نحن كذلك، تنبهنا إلى زميلنا في الطاولة الّتي أمامنا يقف، ويجيب ثمّ يجلس، لم نسمع الجواب، والمعلّم بجانب صلاح، أشار إليه وسأله:

- أين يقع مسقط رأسك؟

وبعفوية وثقة في النفس أجاب:

- يقع مسقط رأسي فوق العنق.

دوت ضحكة هزت أركان الحجرة، لم أتمالك نفسي، وانخرطت في الضحك، وأنا أشاهد المعلّم يضرب ركبتيه بكلتا يديه، يرغب في مقاومة الضحك الّذي يغالبه، بينما صلاح يلتفت يمينا ويسار يرفع كتفيه، ويزم شفتيه تعبيرا عن عدم الفهم.

احمر وجه المعلّم، ودمعت عيناه، وتوجه إلى مكتبه مستندا إلى الطاولات، يجر قدميه ويقهقه، ويتوقّف ليلتقط أنفاسه، ثمّ يضحك مرة أخرى.

لم يتمالك صلاح نفسه، فانخرط معنا في الضحك بسبب العدوى.

كان يضحك، ثمّ يتوقف، ويهز كتفيه، ثمّ يعاود الضحك، مما جعلني غير قادر على التنفس، وحاولت مرارا ألّا أنظر إليه، ولكن لم أستطع. بدأ بطني يؤلمني، واغرورقت عيناي بالدموع، وتناهت إلى سمعي كحات المعلّم وسط هذه الفوضى.

ضربتان على السبورة، وصوت مخنوق يقول:

- نعم، يكفي! لنواصل.

فعاد النظام مرة أخرى، وصمت الجميع.

وجه إلي السؤال، فأجبته. نظر إلي صلاح مستغربا، وبدأ يضحك، غضب المعلم وسأله:

- ما الذي يضحكك؟!

أجاب ببراءته المعهودة:

- ما علاقة العنق بالأماكن؟؟

أراد بعض التلاميذ استغلال الفرصة، ومعاودة الضحك، لكن نظرة المعلّم كانت كافية ليكتموا أنفاسهم.

توجه إلى السبورة، وبين لصلاح أنّه شرح معنى مسقط الرأس الواردة في النص على السبورة، ورغم ذلك عاود الشرح، ففهم صلاح الّذي تغير اسمه منذ ذلك اليوم، وأصبح "فوق العنق".

التقيته قبل سنوات وكان أول شيء نطق به:

- آه! فوق العنق!!

قالها وضحك، ثمّ سألني إن كنت أذكر، حركت رأسي إيجابا.

تعانقنا طويلا وكأنّ ذلك سيطفئ نار الشوق، ويخفّف من لوعة الفراق. رافقته إلى دكّان والده المتوفّى، لقد أصبح إسكافا هو الآخر، أعدّ الشاي، جلسنا وتحدّثنا كثيرا، وتحسر على تلك الأيام، ودّعته ولم أكن أعلم أنّني لن أراه بعدها.

امتحان

استيقظت باكرا، تناولت فطوري على عجل على غير عادتي، فتحت محفظتي أتأكّد من محتوياتها للمرة الرابعة ربّما، كل شيء في مكانه.

كنت ألتفت كل لحظة إلى الساعة، الوقت يمضي مسرعا، كان هذا إحساسي، حملت محفظتي، وخرجت تتبعني دعوات أمي.

من المفروض أن نلتقي قرب المدرسة. لا أحد هنا، هل جئت قبل الموعد؟؟ أم تُراهم تأخّروا؟؟

لا أملك ساعة لأعرف، سرت جيئة وذهابا في الشارع الّذي توجد به المدرسة، غريب!! لا أحد هنا!! أكيد أنّني تأخّرت عن الموعد، فقررت أن ألحق بزملائي.

فضّلت أن أسلك الشارع الرئيسي، من بدايته إلى نهايته، من هذا الحي سوق المخاخ إلى آخر حي سوق الجمال، حيث يلتقي بحي القسم أو البوركو مرورا بشارع محمد سالم بيدا، حسمت أمري، وسرت أتبع التلاميذ القادمين من مدارس مجاورة.

سمعت مصطفى يناديني، فانتظرته، علمت منه أنّ باقي التلاميذ ينتظرون وصول حارس المدرسة كي يرافقهم، طلبت منه أن يخبرهم أنّني سبقتهم وحدي، وأنّ عليهم ألّا ينتظروني.

الشارع طويل لا ينتهي، لا ينام، دائما مزدحم، لكن اليوم يملؤه تلاميذ المدارس الأربعة الموجودة بحي سوق المخاخ، ربّما تواجد هذا العدد من المدارس فيه هو الّذي منحه هذه التسمية؟؟

وصلت إلى مدرسة المسيرة الخضراء، إنّها من مخلّفات الاستعمار، الّذي تفنّن في البناء، واخترع أشكالا غريبة من البنايات، في محاولة منه للتأقلم مع طبيعة الصحراء القاسية.

حجرات الدراسة عبارة عن قطع معدنية كبيرة مركّبة، أما باقي المرفقات فكانت بناء إسمنتيا عاديا، بالإضافة إلى الأقسام تميّزت المدرسة بملاعبها الكبيرة.

اقتربت كغيري من السبورة الكبيرة أبحث عن رقمي ألف ومائة واثنان وستّون، نحن مجرد أرقام، وجدته وقرأت في الأعلى رقم القاعة الّتي سأذهب إليها.

توجهت نحو القاعة الثالثة، التقيت بعض أبناء الحي الّذين يدرسون بالمدارس الأخرى، تبادلنا كلمات قليلة، بعض التلاميذ

رافقهم أهاليهم، وودّعوهم عند باب المدرسة، وجلسوا ينتظرونهم هناك.

الخوف باد على الوجوه. وصلت إلى القاعة، بحثت عن رقمي في اللائحة المعلّقة على بابها، وجدته وعلى يساره اسمي.

دخلت محييا الحاضرين، توجهت نحو مكاني: الطاولة الثانية في الصفّ الأول قرب الباب.

جلست، أخرجت أدواتي من المحفظة، وضعتها على الطاولة.

دقّ الجرس، وبدأت القاعة تمتلئ، دخل أستاذان من أساتذة الإعدادية، يحملان أوراقا، طلبا منّا أن نضع محافظنا قرب السبورة، وبطائقنا قرب الأرقام المدونة على الطاولات.

بدا الارتباك واضحا على البعض: يضع محفظته قرب السبورة، ويعود ليجلس في مكان غير مكانه، يحمر خجلا حين يدرك ذلك، يلتحق بمكانه، ثمّ ينهض إلى السبورة، ويقلّب محتويات محفظته، يغلقها بعد أن حمل منها شيئا، ثمّ يعود لمكانه.

دقّ الجرس مرة أخرى، الكل جالس في مكانه، إنّها لحظات الحقيقة.

وزّعَت أوراق الأسئلة، ثمّ أوراق التحرير والتسويد، تذكّرت كلام المعلّم عمار: " فهم السؤال يساوي نصف الجواب والنصف الثاني مسألة ذكاء".

أمسكت ورقة الأسئلة، قرأتها عدّة مرات، في المرة الأخيرة كنت أدون خطّة العمل على ورقة التسويد.

بدأت الإجابة مباشرة في ورقة التحرير، فاقترب مني الأستاذ الّذي يحرسنا، لاحظ أنّني كتبت فقط أعدادا على ورقة التسويد، فاقترح علي أن أستعمل ورقة التسويد أولا، فما كان مني إلّا أن تظاهرت بذلك.

رسمت على الورقة بعض الرسوم، وزعمت أنّني أنقل منها الإجابة إلى ورقة التحرير، وكنت أحجبها عنه كلّما اقترب من طاولتي.

أنهيت عملي، راجعت إجاباتي، مررت لساني على الجانب الأيسر للورقة لأبلّله، طويته فالتصق، وأخفى معلوماتي الشخصية.

جمعت أغراضي، واتّجهت نحو المكتب، سلّمت ورقتي، ووقّعت أمام اسمي، ثمّ حملت محفظتي، وخرجت إلى الساحة.

في الخارج كان الجميع يتحقّقون من أجوبتهم، وكنت أفكّر في المادة التالية، أربع امتحانات في يوم واحد، اثنان صباحا، ومثلهما مساء.

أنهينا امتحاناتنا مساء، عدت إلى البيت مرهقا، ورغم ذلك خرجت لألعب مع أصدقائي من أبناء الحي، كان الجميع يسألني عن الامتحان وأجوائه، الكبار والصغار.

وكنت أجيبهم أنّني حاولت أن أجيب أجوبة صحيحة، وأنّني أنتظر النتيجة مثلهم، وكانوا يرغبون أن يسمعوا مني أنّني سأنجح، لأنّني متأكّد من إجاباتي.

لن نعود إلى المدرسة إلّا حين تُعلَن النتائج. قضيت فترة الانتظار هذه مستمتعا باللعب مع أبناء الحي: مباريات كرة القدم يوميا أمام الكنيسة الّتي توجد بحينا نهارا، وألعاب المطاردة والاختباء ليلا.

النتيجة

كـ نت ألعب كرة القدم، حافي القدمين، أتصبب عرقا، فالصيف يبدأ مع نهاية شهر ماي، ونحن الآن نقترب من نهاية يونيو، لم يحن بعد موعد صلاة العصر، لست أدري ما الّذي كان يدفعنا للخروج من البيت في هذا الوقت، نتسلّل إلى الخارج فور استسلام أمهاتنا للنوم فترة القيلولة.

أذكر جيدا أنّني تسلّمت الكرة من صديقي ياسين، فسمعت أحدا يصيح:

- لقد أعلنوا نتائج الامتحان.

تركت الكرة، وركضت بأقصى سرعة ممكنة، نحو المدرسة.

وجدت حشدا من التلاميذ والنساء وبضعة شبان، يحملقون في السبورة المعلّقة في الأعلى، لم أقترب منهم وتعجبت لحالهم، فالأرقام مقروءة من المكان الّذي أقف فيه، بدأت أقرأ الأرقام واحدا واحدا ببطء، ألف ومائة واثنان وستون، لقد وجدته، أعدت النظر مرة أخرى، لكنّني لم أصدّق نفسي، فسألت شابا واقفا بقربي.

نظر إلي باستغراب وهو يغالب ضحكته، ثمّ أكّد لي نجاحي، وهنّأني، شكرته، واستغربت من ضحكه، نسيت أنّني حضرت حافي

القدمين، والغبار ملصق بالعرق الّذي كان يغطّي وجهي، وشعري الكثيف الّذي بدأ يلتوي كلّما طال، شعرت بالخجل والإحراج من هيأتي وهندامي، فانسحبت ببطء.

خرجت من المدرسة تغمرني الفرحة، كنت أركض راقصا خلال عودتي إلى الملعب لأكمل مباراة كرة القدم، ما إن رآني ياسين حتى صاح بي، وبدأ يشتم ويسب، ويحملني مسؤولية خسارة الفريق، لم أجادله.

فرحتي بالنجاح طغت على كل شيء، أكملنا المباراة وحلول الظلام، حملت نعلي في يدي، واتجهت خائر القوى حافي القدمين إلى البيت، وفي طريقي استوقفني منظر شبان الحي وهم يلعبون الكرة الطائرة، انتبه عبد الرحيم فتوقّف عن اللعب، ناداني فاتجهت نحوهم، تحلّقوا حولي، سألني عن نتيجة الامتحان، فأجبته أنّي نجحت، هنّأني مؤكّدا أنّني على الطريق الصحيح، أما الآخرون فراحوا ينظرون إلي باستغراب، علّق أحدهم:

- انظروا إليه!! هذه بنية جسم طفل يدرس بالمستوى الثالث.

رد آخر:

- سيلتهمونه في الإعدادية ...

طمأنني عبد الرحيم، وطلب مني ألّا ألقي بالا لتعليقاتهم، وأمرني أن أتوجه فورا إلى البيت لأزفّ الخبر لأسرتي.

وصلت إلى البيت، الكل يسأل عن النتيجة. تعالت الزغاريد، فأقبلت الجارات مهنّئات، تسامرن إلى وقت متأخّر من الليل، وعدن إلى بيوتهن بعد أن وعدتهن أمي بإقامة حفل بالمناسبة.

نمت نوما عميقا تلك الليلة، وراودني حلم عن الإعدادية، وأساتذتها وأجوائها.

الكنيسة

لـ ست أدري ما الّذي جعلني لا أطيق البقاء في البيت، أ هو عنادي؟ لأنّ والدي وأختي الكبرى يمنعونني من الخروج، خاصة وقت الظهيرة.

أم الأجواء المشحونة؛ بيننا نحن الأبناء؛ داخل البيت: الكبار يريدون السيطرة علينا، ونحن نقاوم بشتى الطرق.

أم هو قول ذلك الشيخ الّذي كان يجلس كل يوم أمام بيت ابنته، ينال حصته من أشعة الشمس والهواء المنعش، ويراقبنا ونحن نلعب في حينا، قبل أن نبلغ سن التمدرس. نادانا مرة، وقال:

- إياك أن تحبس نفسك في البيت، البيت مملكة النساء، اخرج ما دمت قادرا على الخروج! لأنه سيأتي يوم وستصبح مثلي، ستخونك رجلاك، حينها، سيضعونك على كرسي، ولن تخرج إلّا إن وجدت من يحملك إلى الخارج، هكذا مثلي تماما.

كان ينظر إلي أنا بالذات، وكانت كلماته لعنة أصابتني.

عطلة صيفية بطعم آخر، حلاوة النجاح؛ في امتحان حطّم أحلام العديد من الأطفال؛ طغت على جميع المشاعر.

وبدأت أتمرّد بطريقتي، كنت أتسلّل خارج البيت فور خروج والدي إلى عمله، وغالبا ما كنت أترك نعلي في البيت، عند عتبة الغرفة، وفي مكاني ترتاح وسادة، يغطيها إزار خفيف، وقد نلت عقابي مرات عدّة إن اكتشفوا خدعتي، وأصبحت أتفنّن في الخداع، أذهب إلى الفراش، وأستلقي منتظرا استسلامهم للنوم، ثمّ أنهض وأغادر البيت وأنا أسير على أطراف أصابع، ونادرا ما كنت أفتح الباب، بل كنت أتسلّق إلى السطح، ومنه أقفز إلى الخارج، أو أتسلّق إلى سطح العمارة المجاورة، وأنزل الدرج وأخرج من بابها كأنّني واحد من سكانها، وإن ضبطني أحدهم، ابتسم في وجهي وحياني:

- أهلا عويطة!

الغريب هو أنّني كنت أتسلّل أحيانا خلال الليل، ولا أعود إلى البيت إلّا بعيد منتصف الليل.

نحن الصغار لم يكن مسموحا لنا بمغادرة الحي، لأنّ أبناء الأحياء الأخرى سيعترضون طريقنا، وستقوم حرب بيننا، كما لا يمكننا اللعب في الملاعب الموجودة في وادي الساقية الحمراء، لأنّ هذا الوادي أقسم أن يأخذ كل سنة سبعة أرواح، هكذا كان يقال، وشهدنا وفاة العديد من الشبان والأطفال في مستنقعاته.

لم يكن أمامنا سوى موقف السيارات التابع للكنيسة، والحديقة المقابلة لها، والتي يطل عليها مستشفى الحسن الثاني حيث ولد أخي الأصغر نهاية شهر مار س الماضي.

كان بابا الكنيسة رجلا طيبا، لا يتذمر من تحويلنا لموقف السيارات الخاص بها إلى ملعب كرة القدم الخاص بنا، كان يقدّم لنا الماء إن عطشنا، وإن سقطت الكرة في حديقة منزله، أسرع وردّها لنا حتى قبل أن ندقّ الباب.

كنّا نخجل منه، نحييه إن التقيناه، ويرد التحية بابتسامته المعهودة، ونحترم صلواتهم يوم الأحد، فلا نبدأ اللعب حتى يغادر المصلّون الكنيسة، ونحب أن، نساعده رغم أنه يرفض.

كان مثل المسنّين المغاربة، الّذين نحبهم، ننتظر مرورهم بلهفة صباح كل جمعة، لا يمكن أن يمر شيخ أو عجوز دون أن يقدّم لنا الحلويات أو الفواكه الجافّة، نقبل أيديهم، وندعو برحمة والديهم، فيفرحون ويدعون لنا بالهداية ورضى الرحمن، كانت عطاياهم بمثابة إتاوة، تجعلنا نمسك الكرة وننتظر مرورهم بسلام.

جاء بابا جديد أرسلته كنيسة مدريد، كان أشبه بحارس الحديقة المجاورة، الّذي حاربنا واستسلم، كان فظّا عبوسا، يكره وجودنا، يرانا شياطينا مزعجين، يطردنا وينسى أنّنا نحب لعبة القط والفأر، فكنّا

نضحك في حين يستشيط غضبا، احتفظ بالعديد من كراتنا، فأصبحنا نجمع الأوراق والأسمال ونلفّها في كيس بلاستيكي لنصنع كرة نتقاذفها في ملعبنا قرب كنيسته، أعلن الحرب ولم يكن يعلم أنّنا على استعداد لها.

فاتفقنا أن نساهم جميعنا لشراء كرة جديدة، وبالفعل يوم واحد كان كافيا لنصنع فرحتنا من جديد، تناوبنا على نفخها بأفوهنا، كانت تحمل أنفاسنا، اعتبرناها مولودنا الجديد، أخذناها إلى ملعبنا، كوننا فريقين، وبدأت المباراة، وانضافت قاعدة جديدة إلى قوانين اللعب: من يسقط الكرة في بيت البابا يتكفّل باستعادتها.

كان يراقبنا من نافذة بيته، وكنّا حذرين في البداية، لكن كرة القدم لعبة حماسية، تُفقدك السيطرة على نفسك، واللعب يسلب عقول الأطفال، قذفت الكرة بقوة وأنا أصدها كي لا تصل إلى المرمى، طارت عاليا لتستقر على سطح البيت، وكأنه كان ينتظر هذه اللحظة، أغلق نافذته.

اعتقدنا في البداية أنّه عاد إلى رشده، وسيفتح الباب، ويعطينا مولودنا قبل أن نطرقه كما فعل سلفه مرارا، لكنّه تأخّر، توجهت إلى الباب طرقته طرقا خفيفا، فضحك أصدقائي، مستغربين من توقّعي

أنّه سيسمع هذا الطرق، والباب تفصله عن البيت حديقة، وكنت أعتقد أنه يقف وراء الباب ينتظر اللحظة المناسبة ليعلن انتصاره.

فتح الباب فقلت كلمة واحدة بإسبانية ركيكة: الكرة! كان رده بالإسبانية أيضا: لا! لا! قالها وهو يبتسم ويحرك رأسه دلالة النفي.

أردت أن أضيف: من فضلك، فضرب بالباب، وأغلقه ولمّا أكمل كلامي. أحسست بالغضب، لكنّني تمالكت نفسي، لأنّ الموقف يحتاج عقلا لإيجاد حلّ مناسب، والغضب يُذهب العقل.

عاد إلى نافذته يراقبنا من جديد، ضحك حسن وهشام، فيما بدأ مصطفى ومحمد بلومي، أما رشيد وعمر وسليمان فبدؤوا يسبونني ويشتمونني والبابا، في حين كان ياسين وعبد الله وزكرياء وفؤاد صامتين ينطرون إلي.

عبرت الشارع، ووقفت على سور الحديقة القصير، وبدأت أقفز لأرى أين تستقر الكرة، عدت إليهم وسألتهم:

- من يرفعني لأصل إلى حافة السطح؟
- أنت قصير، بالكاد ستصلها أصابعك! قال محمد
- إن تمسكت أصابعي سأصعد.
- أجل! لقد رأيته يفعل ذلك مرارا. ردّ مصطفى.

كان سطح الكنيسة عبارة عن أقواس متلاصقة، بينها مسافة خمسين سنتيمترا تقريبا، هذه المسافة تتّصل بالأعمدة الإسمنتية الّتي تحمل الأقواس، وكان هدفي التسلّق إلى السطح من إحدى هاته المسافات.

توجهنا إلى أقرب نقطة، شبك محمد يديه، ووضعت فيهما قدمي اليمنى، فرفعني، وقام مصطفى بدفعي نحو العماد. مددت يدي اليمنى، فأمسكت بالحافة، وطلبت منهم أن يتركوني، بقيت متدلّيا، أتمسك بأصابعي، أخذت نفسا عميقا، ورفعت جسمي إلى أن أصبح ذقني بنفس ارتفاع يدي اليمنى، فأدخلت إبطي الأيسر في المسافة الصغيرة قرب أصابع يدي اليمنى، وجعلته يحمل وزن جسمي كله، حررت يدي اليمنى، و رفعت نصف صدري الأيمن، وأدخلته بين القوسين، توقّفت لألتقط أنفاسي لثوان، وكنت أسمع تشجيعات أصدقائي، فأكملت بأن وضعت يدي أسفل كتفي ومددتهما لأرفع صدري، كي يسمح لي بإدخال ركبتي في المساحة الضيقة، وهكذا وجدتني أقف بين قوسين من أقواس الكنيسة.

أمامي الآن تحدّ آخر: كيف أصعد للأعلى والبناء مقوس؟ وأنا قصير؟

وضعت قدمي اليمنى على القوس الّذي خلفي، وقدمي اليسرى على الّذي أمامي، وبدأت أدفع جسمي للأعلى، ضربة بالقدم هنا، وأخرى في الأعلى، إلى أن اقتربت من القمة، فارتميت عليها بجسدي كله، تمسكت بيدي، وثنيت ركبتي، إلى أن أصبحت في وضعية السجود، فقمت واقفا على قدمي، لقد فعلتها.

ويجب الآن أن أصل إلى مكان الكرة، فبدأت أقفز من قمة قوس إلى قمة الآخر، وعندما اقتربت من مولودتنا، أردت أن أرى المنظر من أعلى، الملعب والحديقة والمستشفى، مركز الشرطة القريب، مبنى البلدية، والمنازل، رفعت رأسي، ونظرت إلى برج الكنيسة العالي، بأجراسه الصدئة الكبيرة.

انزلقت إلى حيث الكرة، رفعتها ليراها أصدقائي، وقذفتها بكل قوتي نحو السماء، وجاست أنظر إليهم يتسابقون نحو مكان نزولها، يتدافعون ليحظوا بشرف التقاطها.

كما أنهيت التسلّق بدأت النزول، قدمي للأسفل، مستندا على صدري، وضعت يدي اليمنى على الحافة، ودفعت جسمي بيدي اليسرى، فتدلّى، أراد أصدقائي الإمساك بي، فصرخت بهم:

- دعوني سأنزل وحدي.

فابتعدوا، مددت أصابع يدي وحررت الحافة، فهوى جسدي، وارتطمت قدماي بالأرض، وسمحت لجسمي أن يخفّف عليهما الصدمة، فثنيت ركبتي، وجلست القرفصاء قبل أن أستلقي على ظهري، كانت أشعة الشمس تدغدغ عيوني، فالتفتّ يمينا، وأحسست بملوحة في فمي، فقد تسللت إليه قطرات العرق، الّتي كانت في طريقها من جبيني إلى عنقي.

عاودنا اللعب، وتعالى صياحنا، وأصبحت حذرا في صدّ كرات الفريق الخصم، ولم تكد تمر أقل من عشر دقائق حتى رأيت الكرة تطير، ولكن هذه المرة سقطت في حديقة منزله، ورغم أنّنا كنّا على يقين من أنّه لن يعيدها إلينا، حاول أحمد أن يجرب حظه مع البابا، الّذي لم يفتح الباب هذه المرة، واكتفي بالتحديق فينا من نافذته، وهو يبتسم شامتا بنا، وكأنّ لسان حاله يقول: كيف ستسترجعونها الآن؟

يئسنا منه، فذهبنا إلى الحديقة المجاورة، وأكملنا اللعب هناك، وقبل أن نفترق اتفقنا أن نحول حياته إلى جحيم.

لم نعد نلعب أمام الكنيسة، ولكن كنا نزورها فرادى، نطرق الباب ونهرب، نجلس في الحديقة، ونراه يفتح الباب لا يجد أحدا، فيسب ويشتم، وجاء يوم الأحد، وكانت أول مرة نتجرأ فيها ونفتح

الباب على المصلين، رأينا الدهشة على وجوههم، فقد كانت تلك أول مرة نفعل ذلك.

ذات أحد كلّفوا شابا بمطاردتنا، واختبأ خلف الباب مباشرة، وما إن فتحه مصطفى، حتى مدّ يده إليه وكاد يمسكه، ركضنا بأقصى سرعة، وكنت أخاف أن يمسكوه، لأن والده مفتّش شرطة، وإن أخذوا ابنه إلى المخفر، فسيؤدّبه هناك، أما أنا فكنت على يقين أنّه لن يمسكني.

تبعنا الشاب مسافة طويلة، وعندما يئس، توقّف، فانعطفنا عند شارع الثامن والعشرين من فبراير، أمام مخبزة الغزالة، ودخلنا زقاقا صغيرا، حينها انتبهت إلى أنّه كان يركض ويضرط في نفس الوقت، محدثا صوتا مثل صوت محرك جرار قديم، لم أتمالك نفسي، فسقطت على الأرض أضحك، وكذلك فعل.

علمنا أن البابا اشتكى للشرطة، فبدأت دورياتها تبحث عنّا، مرت عدّة أسابيع، ونحن نتفادى الاقتراب من الكنيسة، إلى أن جاءتنا أخبار بأن البابا تلقّى توبيخا من السلطات، لأنّه تسبب في خلق المشكل بتعامله الأرعن.

عـدنا إلى ملعبنـا، وإلى احترامنـا للمصـلّين، والبـابا تغـيّر قلـيلا، وأصبحنا نستعيد كراتنا، لكنّه منع علينا الاقتراب من أماكن محدّدة، قبلنا ذلك كهدنة بيننا، تنهي حربا لن تفيد أي طرف.

ازدادت حرارة الصيف، وانتصف شهر يوليوز، فسافر مصطفى إلى الدار البيضاء، وياسين إلى بني ملال، وحسن رافق والده وجده إلى الصحراء، هشام مع أسرته يستمتعون برمال شاطئ فم الواد، محمد ورشيد رافقا أسرتهما إلى تزنيت، عمر ذهب لزيارة أقاربه بقلعة السراغنة، وسليمان يصل رحمه بآسفي، وأحمد لبى نداء مراكش الحمراء...

وبقينا نحن نزود أجسامنا بفيتامين دال.

تعريف الكاتب

علي الداودي، معلّم مغربي من مواليد عام 1975، اشتغل بالتدريس منذ 1998 ، ممّا منحه نظرة ثاقبة على عوالم الطفولة والتنشئة الاجتماعية.

يعكس في عمله الأدبي تجربته العميقة كتلميذ في المرحلة الابتدائية منذ عام 1981. الجزء الثاني سيكون عن المرحلة الإعدادية، إن قدّر للجزء الأول أن يلقى النجاح.

"هلوسة: ومضات من الذاكرة" هو أول عمل أدبي له، وفي الجزء الأول يقدّم رؤية صادقة لوقائع من الذاكرة، مستنبطة من تجربته الشخصية، ويسلّط الضوء على مرحلة المدرسة الابتدائية.

يبرز الكتاب صوته الفريد في استكشاف لحظات النمو الإنساني والتحديات الخفية، ليلامس القارئ من خلالها أبعادا إنسانية مشتركة، ويدعوه للغوص في أعماق ذاته.

"يا أبنائي، إنكم ترسمون، تخلقون شيئا من العدم، الرسم لا يحتاج إلى العنف، كونوا لينين مع الورقة، فهي تشبهكم، هشّة رقيقة، لا تؤلموها بالضغط على القلم. اتفقنا!"

روابط مهمّة لكل كاتب، ستساعدك على تنمية مهاراتك الكتابية.

شروط النشر في دار بسمة للنشر الإلكتروني

اشترك في النشرة البريدية الآن

اسأل سؤالك هنا

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا – في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايين من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأة والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.َ

المحتويات

الإهداء 6
تمهيد 7
قبل التمدرس..... 9
أوّل حبّ 10
حلّ..... 16
السنة الأولى 19
مدرستي 20
صناعة القطيع..... 25
سنة أولى..... 29
العربي..... 38
حنان 42
إنسانة..... 47

الجحش! 52
السنة الثانية 55
جمال 56
ردّ اعتبار 61
استراحة 66
تسرّع 72
مسرحيّتي 76
اليتيمة 83
عادل 88
حيلة 93
السنة الثالثة 101
قرار 102
الدليل 106
الأوّل 112
درس 116
هلوسة 120
لعبتي 125
بلال 128
فرحة 133

عويطة 137
السنة الرابعة 141
أسماء 142
عمّار 145
مخلوقات 149
عقاب 153
الحارس 157
حمدي 161
الحبّ الحقيقيّ 164
ثقة 168
ثمّن الحرّيّة 171
السنة الخامسة 177
تسرّب 178
شعير 181
الإملاء 186
الجمل 189
عيد الميلاد 193
مسقط الرأس 199
امتحان 203

النتيجة 208
الكنيسة..... 211
تعريف الكاتب 222

هلوسة

ومضات من الذاكرة

علي الداودي، معلم مغربي من مواليد عام 1975، اشتغل بالتدريس منذ 1998 ، مما منحه نظرة ثاقبة على عوالم الطفولة والتنشئة الاجتماعية.

يعكس في عمله الأدبي تجربته العميقة كتلميذ في المرحلة الابتدائية منذ عام 1981. الجزء الثاني سيكون عن المرحلة الإعدادية، إن قدر للجزء الأول أن يلقى النجاح.

"هلوسة ومضات من الذاكرة" هو أول عمل أدبي له، وفي الجزء الأول يقدم رؤية صادقة لوقائع من الذاكرة، مستنبطة من تجربته الشخصية، ويسلّط الضوء على مرحلة المدرسة الابتدائية.

يبرز الكتاب صوته الفريد في استكشاف لحظات النمو الإنساني والتحديات الخفيّة، ليلامس القارئ من خلالها أبعادًا إنسانية مشتركة، ويدعوه للغوص في أعماق ذاته.

"يا أبنائي، إنكم ترسمون، تخلقون شيئا من العدم، الرسم لا يحتاج إلى العنف، كونوا لينين مع الورقة، فهي تشبهكم، هشة رقيقة، لا تؤلموها بالضغط على القلم. اتفقنا !"